

موسوعة سفير
لتاريخ الإسلام

عصر النبوة والخلافة الراشدة



سفير

A:J
297.09
M462m
v.1
c.1

موسوعة سفير
للتاريخ الإسلامى

997.09
7462m
n. 1

عصر النبوة والخلافة الراشدة

تأليف

أ.د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
بجامعة الأزهر

LAU - Riyad Nassar Library

09 JUL 2008

RECEIVED

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لشركة سفير

٥ ش جزيرة العرب - المهندسين - القاهرة. ص.ب: (٤٢٥) الدقى

G1145579

RECEIVED
09 JUL 2008

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وأصحابه ومن تبع هداة ، وبعد :

فمما لاشك فيه أن التاريخ هو مرآة الأمم ، ومجلى شخصيتها المتميزة ، وعبقريتها الخاصة ، ورسالتها الحضارية . والدارس لتاريخ أية أمة يستطيع أن يستجلي منه معالم المستقبل بالنسبة لهذه الأمة ، ودورها في صياغة المصير الإنساني . على أن دراسة التاريخ لا تعنى فقط التعرف على وقائع مضت أو أحداث انصرفت ، ولكنها تعنى أيضاً التعرف على طبائع الأمم وخصائصها الثابتة ، كما تعنى التعرف على الطاقات المخزونة في نفوس أفراد هذه الأمم ، وجماعاتها ، وشعوبها .

ونحن إذ نقدم هذا العمل «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامى» لا نقصد به أن نتعرف على جوانب العظمة والفخر فى تاريخ أمتنا فحسب ، بل نقصد أيضاً أن نتعرف على جوانب أخرى لم تكل من العيوب والمآخذ . . . والقصد من كل هذا أن نتيح لأنفسنا فرصة التعلم من التاريخ ومن دروسه العظيمة وشواهده الخالدة .

إن هذا العمل وهو يتناول تاريخ الإسلام والمسلمين إنما يعنى إلى حد كبير بتاريخ الحضارة الإسلامية وإسهاماتها فى تقدم الإنسان وإسعاده على مر التاريخ . . . ونحن نتحدث عن الحضارة الإسلامية وصناعاتها ، فنحن نتحدث عن المسلمين ، وعن غير المسلمين الذين عاشوا فى ربوع الإسلام ، وأسهموا إسهاماً لا ينكر فى إثراء هذه الحضارة الإنسانية العظيمة .

وهذه الموسوعة تتناول تاريخ الإسلام والمسلمين عبر مساحة زمنية رحبة ، تمتد من بعثة النبى ﷺ حتى إلغاء الخلافة الإسلامية عام (١٣٤٣هـ = ١٩٢٤م) ، كما تمتد عبر رقعة كبيرة من الأرض امتدت حدودها من الصين وإندونيسيا شرقاً إلى الأندلس والمحيط الأطلنطى غرباً . . . ومن أواسط آسيا شمالاً إلى المحيط الهندى وأقصى إفريقيا جنوباً .

وقد انتهجت الموسوعة منهج الحياد فى عرض الوقائع والأحداث ، دون تهويل وتطويل فى ذكر الأمجاد والبطولات أو تهوين من العيوب والأخطاء ، وإذا كان استخلاص الدروس والعظات والاعتبار بتجارب السابقين أحد أهداف دراسة التاريخ كما أشرنا من قبل فإن ذلك لا يتحقق إلا بالدراسة الموضوعية ، والأمم الحية هى التى تدرس تاريخها ، لتتعلم من أخطائها قبل أن تباهى بأمجادها أو تفخر بأبطالها .

وقد جاء هذا العمل فى تسعة أجزاء ، تناول كل جزء منها عصرًا من العصور ، فتناول الجزء الأول «عصر النبوة والخلافة الراشدة» ، والجزء الثانى «العصر الأموى» ، والجزء الثالث «العصر العباسى فى العراق والمشرق» ، والجزء الرابع «المشرق الإسلامى بعد العباسيين» ، والجزء الخامس «مصر والشام والجزيرة العربية» ، والجزء السادس «تاريخ المسلمين فى الأندلس» ، والجزء السابع «تاريخ المغرب الإسلامى» ، والجزء الثامن «تاريخ الدولة العثمانية» ، والجزء التاسع «تاريخ المسلمين فى إفريقيا جنوبى الصحراء» .

وحرص القائمون على العمل أن يخرج فى أبهى صورة وأجمل حلة ، مشرق العبارة ، سلس الأسلوب ، مزوداً بالرسوم الفنية والصور الوثائقية والتاريخية ، والخرائط الجغرافية التى اعتمدت فى معظمها على كتاب أطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس ، فعسى أن تتحقق به الغاية المرجوة بإذن الله ، وله الحمد والمنة ، ويده التوفيق والسداد ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

د/محمد عبد اللطيف

الهيئة المشرفة :

أ.د. حسن محمود الشافعى

عضو مجمع اللغة العربية والأستاذ بجامعة القاهرة .

أ.د. حسن على حسن

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة .

أ.د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة الأزهر

أ.د. عبد الله جمال الدين

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة .

أ.د. محمد حرب

رئيس مركز بحوث العالم التركى

المحرر العام

أحمد عبدالفتاح تمام

الإشراف على التنفيذ

عمر على الكومى عبد الحميد توفيق

المراجعة اللغوية والتصحيح

زينهم البدوى حمدى بنورة

الإخراج الفنى

ماهر عبدالقادر

رسوم

ماهر عبد القادر ضياء سعيدة

شمس الدين السلاب محمد متولى

عبد المرسى عبيد د. علاء الدين سعد

عادل حسن



رقم الإيداع : ٨٠٣٤ / ١٩٩٦

الترقيم الدولى : 8 - 489 - 261 - 977 I.S.B.N :

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة والنعمة المسداة محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .. وبعد

فهذا هو الجزء الأول من «موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي» ، نتناول فيه عصر النبوة والخلافة الراشدة، أعظم فترة في تاريخ الإنسانية وأزهاها، وأكثرها رحمة ورأفة، وأذكأها عدلاً وإنصافاً، شهدت ميلاد الرسالة الخاتمة، وجهاد النبي ﷺ وأصحابه في تبليغها للناس، متحملين في سبيل ذلك العنت والعذاب، وترك البلاد الأوطان، ومفارقة الأهل والصحاب.

وقد نجح النبي ﷺ في أداء مهمته نجاحاً باهراً، فانتقل العرب من الشرك والوثنية إلى التوحيد الخالص لله، ومن الفرقة والفوضى إلى الوحدة والنظام، ومن حياة البداءة إلى نظام الدولة، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن ضلالة الشأن وخمول الذكر إلى قيادة الدنيا وبعد الصيت.

وكان عصر خلفائه الراشدين امتداداً لعصره، وتدعيمًا لدولته، وتوسيعًا لمساحتها، فألقى الإسلام بظلاله الوارفة على فارس والعراق والشام ومصر وشمالي إفريقيا، ولس الناس في تلك الأرجاء ما لم يلمسوه من قبل، عدلا وتسامحًا، وإنسانية في أسمى معانيها، وتنسموا عبق الحرية ونسيم المساواة.

ولم تستغرق فتوحاتهم سوى سنوات قليلة، لكنها كانت ذات نتائج بعيدة المدى في تاريخ العالم، وأحدثت تأثيرات عميقة شملت النواحي الدينية والسياسية والاجتماعية والفكرية، ولا يزال أثرها باقيًا حتى اليوم، فانتشر الإسلام في حرية ودون إكراه، وتعلم الناس العربية لسان قرآنهم، وتشكّل عالم إسلامي واحد.

وشهد هذا العصر من تجسّد المثل العالية، وتطبيق العدل الكامل، وتحقيق المساواة المطلقة ما لم يشهده عصر
 فى تاريخ الإنسانية، وضرب الخلفاء الراشدون وولاتهم أروع الأمثلة فى ذلك.

ولا ينبغي النظر إلى هذا العصر على أنه مجرد تاريخ يحكى أو أحداث تسرد، أو مواقف تقص بل هو وبخاصة العهد النبوى مدرسة كبرى تخرج فيها عظماء الرجال، وفتاحو البلاد، وكبار القادة، وبناء الحضارة الإسلامية الشامخة التي أمدت البشرية ب زاد روحى وثقافى قروناً طويلة .

ولا يزال المسلمون اليوم أجوع ما
يكونون إلى التأسى بروح هذا العصر
ورجاله، ليصلحوا ما فسد، ويقوموا ما أعوج
من أحوالهم وشئونهم .

جغرافية بلاد العرب

بلاد العرب شبه جزيرة ، تقع جنوبى غربى قارة آسيا ، يحدها «البحر الأحمر» من الغرب ، و«الخليج العربى» من الشرق ، و«بحر العرب» و«المحيط الهندى» من الجنوب ، وبادية «الشام» من الشمال ، وتبلغ مساحتها أكثر من مليونى كيلو متر مربع ، ويقسمها الجغرافيون إلى خمسة أقاليم رئيسية هى :

- إقليم تهامة : وهو شريط ساحلي يطل على البحر الأحمر ، وسمى بتهامة لارتفاع درجة حرارته ، وركود هوائه .



وهذه المساحة الكبيرة ذات طبيعة صحراوية ، لا يجرى فيها نهر واحد ، ولا تسقط الأمطار إلا نادراً ، باستثناء إقليم «اليمين» الذي تسقط فيه بعض الأمطار الموسمية ، وبخاصة في فصل الصيف ، مما يسر لأهلها حياة مستقرة نتيجة اشتغالهم بالزراعة ، وساعدهم على إقامة حكومات منظمة ، وإقامة حضارة راقية ، وقد اشتهر هذا الإقليم باليمن السعيد .

أما بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية فقد قلت فيها الزراعة أو كادت تنعدم ؛ لندرة المياه عدا بعض الواحات التي بها عيون للمياه، ساعدت على نمو الحشائش التي ترعاها الماشية ، وزراعة بعض المحاصيل كالشعير والقمح .

و«المدينة» المنورة.

- إقليم نجد : ويقع شرقي «الحجاز» ويمتد من صحراء بادية «السماء» شمالاً حتى قرب حدود «اليمن» جنوباً ، وسمي «نجداً» ؛ لارتفاع أرضه .

- إقليم العروش : وهو الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية ، ويطل على «الخليج العربي» .

- إقليم اليمن : وهو الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة

- إقليم الحجاز : ويقع شرقي «تهامة» ، ويمتد من «الشام» شمالا إلى «اليمن» جنوبًا ، وتقع عليه سلسلة جبال «السراة» ، وسمي بالحجاز ؛ لأنه يحجز بين «تهامة» في الغرب و«نجد» في الشرق . وتقع في هذا الإقليم «مكة» المكرمة ،



مكة المكرمة

نحو خمسة عشر متراً ، وعرض
جداريه الشمالى والجنوبى نحو
عشرة أمتار ، والشرقى والغربى اثنا
عشر متراً .

ويقع باب «الكعبة» فى الجدار
الشرقى ، وفى الطرف الجنوبى
منه يقع «الحجر الأسود» ،

وهى منذ بنائها مثابة للناس
وأمن ، كما أخبر بذلك الله -
تعالى - فى القرآن الكريم ، وظلت
قبائل «جرهم» تقوم على خدمة
«الكعبة» ، ورعاية حجاجها ، إلى
أن ضعفت ، فحل مكانها فى تلك
المهمة قبائل «خزاعة» ، التى
ضعفت هى الأخرى بعد فترة ،
فخلفتها قبيلة «قريش» بزعامة
«قصي بن كلاب» الجد الرابع للنبي
ﷺ ، فأسس دار الندوة فى
«مكة» ، وهى أشبه ما يكون ببرلمان
صغير ، يتشاور فيه زعماء «قريش»
حول شئونهم ، ونظم «قصي بن
كلاب» السقاية ، وهى جلب الماء
للحجاج من آبار بعيدة ، بعد أن
ردمت قبائل «جرهم» بئر «زمزم»
عندما غلبتها «خزاعة» على أمرها
وتركت «مكة» ، واهتم بالسدانة ،
وبالرفادة وهى إطعام الحجاج ،
وبالحجابة وهى خدمة «الكعبة»
وتولى مفاتيحها ، وباللواء وهو
راية الحرب ، وكان ذلك كله فى يد
«قصي» ، ولكن بعد وفاته قُسمت
هذه المناصب بين أحفاده .



كان وجود الماء فى هذا المكان
عجباً ، فجذب القبائل التى كانت
تسكن بالقرب منه ، وهى قبائل
«جرهم» فجاءوا إلى «هاجر» ،
وطلبوا منها السماح لهم بأن ينتفعوا
بماء زمزم ، فأذنت لهم ورحبت
بهم ؛ ليؤنسوا وحدتها هى وابنها ،
وبدعوا يقيمون بيوتهم حول بئر
«زمزم» ، ومن هنا كانت نشأة
«مكة» المكرمة ، وفيها عاشت
«هاجر» وابنها «إسماعيل» بين قبائل
«جرهم» ، ولما كبر تزوج منهم ،
وأنجب أولاده الذين هم أجداد
العرب المستعربة .

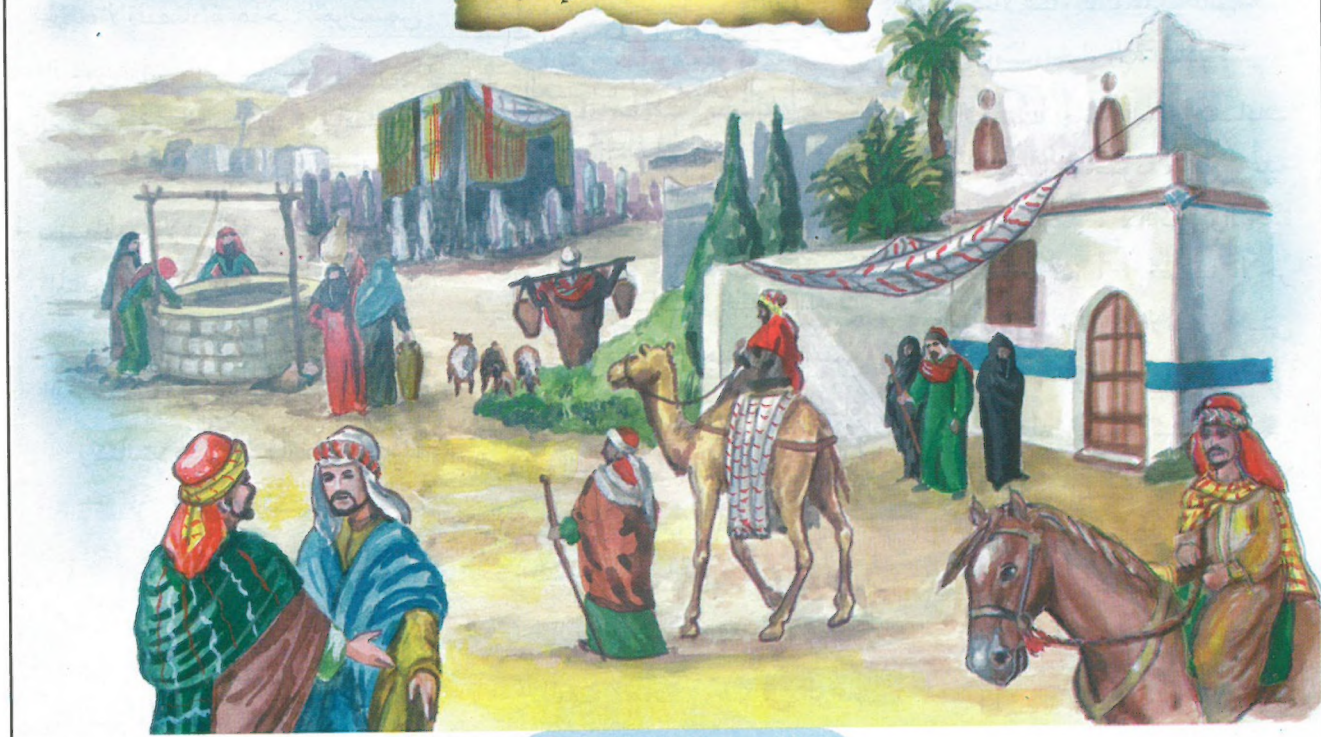
واتسعت «مكة» شيئاً فشيئاً ،
وزحف إليها العمران ، وذاعت
شهرتها بين المدن ، بعد أن أمر الله
- تعالى - «إبراهيم» - عليه السلام
- فى إحدى زيارته لابنه
«إسماعيل» ببناء «الكعبة المشرفة» ،
فأصبحت «مكة» مكاناً مقدساً ،
وزادها الله تشريفاً بهذا البناء .
و«الكعبة» التى بناها نبي الله
«إبراهيم» - عليه السلام - بناء
مربع الشكل تقريباً ، يبلغ ارتفاعه

تقع «مكة» المكرمة فى إقليم
«الحجاز» ، شرقى مدينة «جدة»
بنحو سبعين كيلو متراً ، وترتبط
نشأتها بقصة «إبراهيم الخليل» وابنه
«إسماعيل» عليهما السلام ، حيث
أمر الله تعالى نبيه «إبراهيم» أن
يذهب بابنه «إسماعيل» إلى الوادى
الذى نشأت فيه «مكة» ؛ وأن
يسكنه فيه ، فامثل «إبراهيم» لأمر
الله ، وارتحل إلى ذلك الوادى
وكان قفراً (ليس به زرع أو ماء) ،
خالياً من السكان ، وترك زوجته
«هاجر» وابنها الطفل «إسماعيل» ،
وفى هذا يقول الله تعالى على لسان
«إبراهيم» عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ
غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾

[إبراهيم: ٣٧]
وإكراماً لإسماعيل فجر الله -
تعالى - بئر «زمزم» ، بعد أن
يشت أمه «هاجر» من وجود الماء ،
وهى تسعى باحثة عنه بين صخرتى
«الصفا» و«المروة» ، وقد أصبح
السعى بينهما ركناً من أركان الحج .

أحوال العرب قبل الإسلام



* أحوال العرب السياسية :

دول كثيرة متعاقبة ، مثل : دولة
«معين» ، ودولة «قُتبان» ، ودولة
«سبأ» التى سميت بها سورة من
سور القرآن الكريم ، ودولة
«حمير» التى ظلت قائمة حتى
احتلتها «الحبشة» فى بداية القرن
السادس الميلادى ، ثم استولى
عليها «الفرس» ، وظلت كذلك
إلى أن حررها الإسلام من
الاحتلال الفارسى ، وأسلم أهلها .

وقامت فى «اليمن» حضارة
عظيمة ، فاشتهرت ببناء السدود
كسد مأرب ، لحزن مياه الأمطار
لاستخدامها فى الزراعة ، وازدهرت
فيها التجارة ؛ بسبب موقعها
الجغرافى المتميز على المدخل الجنوبى
للبحر الأحمر ؛ مما جعلها مركزاً
تجارياً كبيراً بين الشرق الأقصى
وشرقى «إفريقيا» بل و«أوروبا» .

عرفت بلاد العرب الحياة
السياسية المنظمة قبل الإسلام ،
وبخاصة فى «اليمن» ، حيث
الزراعة والاستقرار ، فقامت فيها

يقسم علماء الأنساب العرب
إلى :

- عرب بائدة ؛ وهم الذين
هلكوا ولم يبق من نسلهم أحد ،
مثل : «عاد» ، و«ثمود» و«طُسم» ،
وغيرهم .

- وعرب باقية ، وهم قسمان :
أ - عرب عاربة ، وهم أهل
«اليمن» الذين ينسبون إلى «يعرب
ابن قحطان» .

ب - وعرب مستعربة ، وهم
الذين ينسبون إلى «عدنان» الذى
يتصل نسبه بإسماعيل بن إبراهيم
عليهما السلام ، وسموا مستعربة ؛
لأن أباهم غير عربى وهو
«إسماعيل» - عليه السلام - وأمه
عربية من «جرهم» .



وبعد انهيار «سد مأرب» وتدهور الحياة الاقتصادية هاجر العرب من «اليمن» إلى أطراف شبه الجزيرة العربية في الشمال ، وأقاموا إمارات عربية ، ظلت قائمة إلى ما بعد ظهور الإسلام ، فنشأت إمارة «المانذرة» في «العراق» ، وكانت عاصمتها مدينة «الحيرة» ، وإمارة «الغساسنة» في جنوب «الشام» .

وكانت هناك إمارات عربية أخرى في شرقي شبه الجزيرة العربية ، في «البحرين» و«اليمن» ، وفي جنوبها الشرقي في «عمان» ، وكلها أسلمت في عهد الرسول ﷺ ، وأصبحت جزءاً من الدولة الإسلامية .

وأما بقية شبه الجزيرة فكان يعيش أهلها حياة قبلية ، حيث يحكم كل قبيلة شيخ ، هو صاحب الكلمة النافذة ، والأمر والنهي فيها .

* الحياة الاجتماعية :

اختلفت الحياة الاجتماعية في بلاد العرب من مكان إلى آخر باختلاف حياة الحضر والبدو ، فالأجزاء الحضرية التي تتمتع بحياة مستقرة وبنظم سياسية يقسم المجتمع فيها إلى طبقات : طبقة الملوك والحكام والأمراء ، وهم يمثلون قمة الهرم الاجتماعي ، وينعمون بحياة الترف والنعيم ، تليهم طبقة التجار والأثرياء ، ثم تأتي طبقة الفقراء في أدنى الهرم الاجتماعي .

أما البدو فيتألفون من طبقتين : طبقة السادة ، وهم في الواقع كل العرب البدو ، سواء أكانوا أغنياء أم فقراء ، فالفقر لم يكن يحد من حرية الإنسان العربي وسيادته ، فمهما يكن فقيراً فهو مالك لزمان نفسه ، معتر بحريته .

- وطبقة العبيد والخدم ، وكان يمتلكهم الأغنياء ، وعلى عاتق هذه الطبقة قامت الحياة الاقتصادية . واتسمت حياة البداوة بعادات بعضها جميل محمود ، أبقى عليه الإسلام وشجعه ، كالكرم والنجدة وإغاثة الملهوف ، وبعضها الآخر قبيح مرذول حاربه الإسلام حتى قضى عليه ، كوأد البنات خوفاً من العار ، وهذه العادة كانت - في واقع الأمر - في قبائل معينة ولا تمثل نظرة العرب كلهم إلى المرأة ، لأنها كانت عندهم محل اعتزاز وتقدير بصفة عامة .

* الحياة الدينية :

عرفت بلاد العرب التوحيد قبل الإسلام بزمان طويل ، فقد نزلت فيها رسالات سماوية ، كرسالة «هود» - عليه السلام - في جنوبي شرقي الجزيرة العربية ، ورسالة «صالح» - عليه السلام -

في شماليها الغربي ، كما عرفوا التوحيد من رسالة «إسماعيل» - عليه السلام - ، ولكن بمرور الزمن نسوا هذه الرسالات ، وتحولوا إلى الوثنية وعبادة الأصنام ، وأصبح لهم آلهة كثيرة مثل «هبل» و«اللات» و«العزى» .

وعلى الرغم من انتشار عبادة الأصنام انتشاراً واسعاً في بلاد العرب ، فإن هناك ما يدل على أنهم لم يكونوا يعتقدون اعتقاداً حقيقياً فيها ، فيحكي القرآن الكريم على لسانهم قولهم :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾

[الزمر: ٣]

وكان منهم من رفض عبادة الأصنام رفضاً قاطعاً ، وهم الذين سَمُوا بالحنفاء ، كورقة ابن نوفل ، و«زيد بن عمرو بن

نُفيل» ، و«عثمان بن الحويرث» ، و«عبيد الله بن جحش» ، و«قس ابن ساعدة الإيادي» ، وهؤلاء لم تقبل أذهانهم عبادة الأصنام ، فاعتنق بعضهم المسيحية ، وترقب بعضهم الآخر ظهور الدين الحق .

وإذا كانت الوثنية قد سادت بلاد العرب ، فإن اليهودية والمسيحية عرفت طريقها إليها فتركزت المسيحية في «نجران» التي كانت وقتئذٍ من أرض «اليمن» ، في حين استقرت اليهودية شمال «الحجاز» ، في «يثرب» و«خيبر» ، و«وادي القرى» و«تيماء» .

ومن العجيب أن اليهودية والنصرانية لم تنتشرا على نطاق واسع في بلاد العرب ، ولعل ذلك راجع إلى أن اليهودية تُعدّ ديانة مغلقة ، فأهلها كانوا يعتبرونها ديانة خاصة بهم ، فلم يدعوا أحداً إليها ، ولم يرحّبوا باعتناق غيرهم لها ، أما المسيحية ، فعلى الرغم من أنها ديانة تبشيرية ، وأهلها يرغبون في نشرها في العالم فإنه يبدو أنها حين وصلت إلى بلاد العرب كانت قد بلغت درجة من التعقيدات والخلافات لم تستسغها عقول العرب .



كان العرب قبل الإسلام أمة أمية، لا تعرف القراءة والكتابة إلا في نطاق ضيق، ولم يكن الذين يعرفونها في «مكة» مثلاً يزدون على عشرين شخصاً، ومع ذلك فإنهم امتلكوا قدرًا لا بأس به من المعرفة، واتصلوا بالعالم الخارجي من خلال رحلاتهم التجارية، فعرفوا الثقافة الفارسية عن طريق إمارة «الحيرة» العربية، والثقافة اليونانية عن طريق الإمارات العربية في «الشام».

واكتسب العرب أيضًا قدرًا كبيرًا من المعارف العلمية بالخبرة والتجربة وبدافع الحاجة كالمعلومات الفلكية والجغرافية، دفعهم إلى معرفتها

تنقلاتهم الكثيرة، وارتحالهم من مكان إلى آخر، وحاجتهم إلى معرفة مواسم نزول الأمطار وهبوب الرياح.

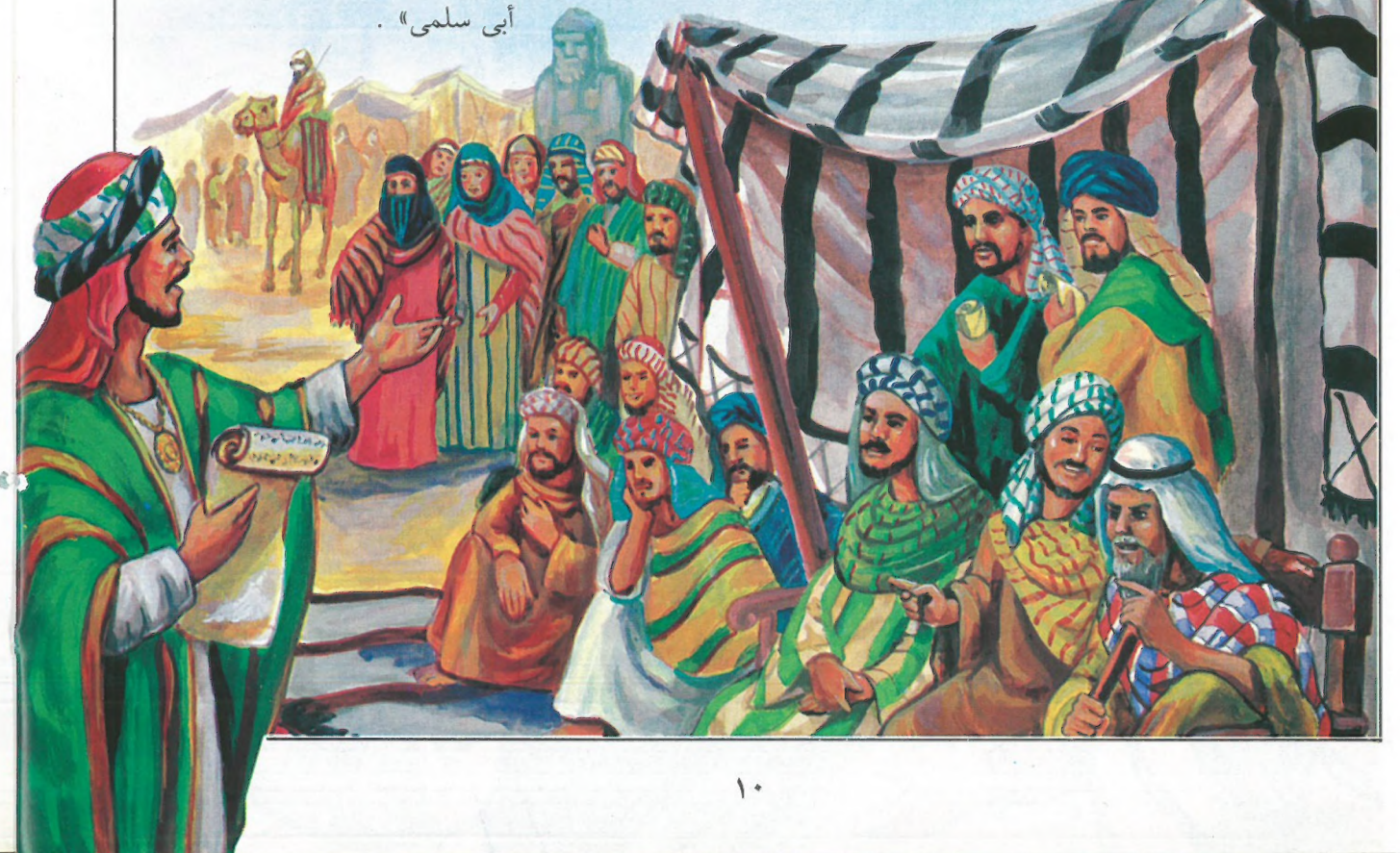
وتفوق العرب على غيرهم من الأمم في مجال «علم الأنساب»، وذلك لاعتزازهم بانتسابهم إلى قبائلهم، وبلغ من شدة اهتمامهم بعلم الأنساب أن اعتنوا بأنساب الخيل، غير مكتفين بأنساب البشر.

أما الميدان الثقافي الذي برع فيه العرب فهو البلاغة والفصاحة، فالعربي كان فصيحًا بطبعه، بليغًا بفطرته، ودليل ذلك فهمهم للقرآن الكريم، الذي نزل بلغتهم وهو ذروة البلاغة والفصاحة.

وبرع العرب في ميدان الشعر براعة واضحة، فهو ديوان

حياتهم، وشعراؤهم يُعدُّون بالملثات، والشعر العربي إلى جانب كونه لونًا راقياً من ألوان الأدب يُعدُّ بعد القرآن الكريم مصدراً من مصادر معرفة الحياة العربية بكل خصائصها ومظاهرها.

وكما تفوق العرب في الشعر تفوقوا في الخطابة، وكانوا يقيمون الأسواق الأدبية التي تشبه مهرجانات المسابقات الأدبية في الوقت الحاضر، ومن أشهر تلك الأسواق سوق «عكاظ»، وكانت تعقد فيها لجان للتحكيم بين الشعراء والخطباء، والقصيدة أو الخطبة التي يفوز صاحبها يتناقلها الناس ويحفظونها، ويشيدون بقائلها، ومن القصائد الرائعة ما كان يعلق في «الكعبة»، وهي التي عرفت باسم «المعلقات»، مثل معلقة «امرئ القيس» و«زهير بن أبي سلمى».



الرسول هو «محمد بن عبدالله ابن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف»، يتصل نسبه بإسماعيل ابن إبراهيم - عليهما السلام - .

وكان جده «عبدالمطلب» قد نذر وهو يعيد حفر بئر «زمزم» - بناءً على رؤية رآها - أنه إن رزقه الله بعشرة من الأولاد ليذبحن أحدهم قرباناً للآلهة، فلما تحقَّق له ذلك أراد أن يفي بنذره، فضرب الأقداح عند «الكعبة» كما كانت عاداتهم على أولاده جميعاً، ومن يخرج عليه السهم يكن هو الذي ارتضته الآلهة قرباناً لها فخرج السهم على «عبدالله» فعزم «عبدالمطلب» على ذبح ابنه.

ولما ذاع خبر «عبدالمطلب» مع

ابنه في «مكة» فزع أهلها من هذا الحدث، وذهبوا إليه يثنون عنه أمره، فلما لم يجدوا منه استجابة لرجائهم، اقترحوا عليه الذهاب إلى عرافة مشهورة؛ لعلهم يجدون عندها لهذه المشكلة حلاً، فوافقهم على ذلك.

فلما ذهبوا إلى العرافة وقصوا عليها ما حدث، اقترحت عليهم أن يضربوا القداح عند آلهتهم، على «عبدالله» وعلى عشرة من الإبل، فإن خرجت على «عبدالله» زادوا عشرة من الإبل، حتى ترضى الآلهة وتخرج القداح على الإبل، ففعل

ذلك «عبدالمطلب»، حتى وصل العدد إلى مائة، وعندئذ خرج السهم مشيراً إلى الإبل، ففرح «عبدالمطلب»، وفرحت معه «مكة»، ونحر الإبل، وأطعم الناس ابتهاجاً بنجاة ابنه الحبيب من الذبح.

زواج عبد الله من

آمنة بنت وهب

بعد نجاة «عبدالله بن عبدالمطلب» من الذبح زوجّه من «آمنة ابنة وهب بن عبد مناف بن زهرة».

وبعد أيام من العرس خرج عبدالله في رحلة تجارية إلى «الشام»، فخرج مع قافلة قرشية وباع واشترى ، وفي عودته مر بيثرب ؛ ليزور أحوال أبيه من «بنى النجار» ، لكنه مرض في أثناء زيارته ، فلما بلغ «عبدالمطلب» خبر مرض ابنه ، أرسل على الفور أكبر أبنائه «الحارث بن عبد المطلب» إلى «يثرب» ليعود بأخيه ، لكن «عبدالله» توفى قبل أن يصل أخوه إلى «يثرب» ، فحزن «عبدالمطلب» حزناً شديداً على موت ابنه «عبدالله» الذى لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، ولم يمض على زواجه سوى شهور قليلة .

ولما خفت موجة الحزن على أمته ، بدأت تحس بجنين يتحرك فى أحشائها ، فتعلق به أملها ، عسى أن يعوضها فقد زوجها الحبيب ، وأخبرت «عبدالمطلب» بحملها ، ففرح لذلك فرحاً شديداً ، وامتلاً قلبه أملاً ورجاءً فى أن يأتى هذا الحمل بولد يعوضه عن ابنه الفقيد .

* حادثة الفيل :

بعد أن حكم «أبرهة» «اليمن» تملكته الغيرة من الكعبة المشرفة ، وأراد أن يصرف العرب عن زيارتها ، فبنى كنيسة ضخمة بالغة الروعة ، تسمى «القليس» ، وساق أهل «اليمن» إلى التوجه إليها والتعبد فيها ، لكنه لم يفلح فى

ذلك ، وزاد من غضبه أن أحد الأعراب عبث بالكنيسة وقذرها ، فأقسم «أبرهة» ليهدم الكعبة ، ويطأن «مكة» ، وجهز لذلك جيشاً جراراً ، تصاحبه الفيلة ، وفي مقدمتها فيل عظيم ، ذو شهرة خاصة عندهم .

وحينما علمت العرب بنية «أبرهة» تصدوا له ، لكنهم لم يفلحوا فى وقف زحفه ، حتى إذا بلغ جيش «أبرهة» «المغمس» - وهو مكان بين «الطائف» و«مكة» - ساق إليه أموال «تهامة» من «قريش» وغيرها ، وكان فيها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم ، فهمت «قريش» وقبائل العرب بقتال «أبرهة» ، ولكنهم وجدوا أنفسهم لاطاقة لهم بحربه ، فتفرقوا عنه دون قتال .

أرسل «أبرهة» إلى «عبدالمطلب» يبلغه أنه لم يأت لحربهم ، وإنما جاء لهدم البيت ، فإن تركوه وما أراد فلا حاجة له فى دمائهم ، فذهب «عبدالمطلب» إليه ، فلما دخل نزل «أبرهة» من سريره ، وجلس على البساط ، وأجلس «عبدالمطلب» إلى جانبه ، وأكرمه وأجله ، فطلب «عبدالمطلب» منه أن يرد عليه إبله التى أخذوها ، فقال «أبرهة» : أعجبتنى حين رأيتك ، وزهدتُ فيك حين كلمتني ، تترك بيتاً هو دينك ودين آبائك ، جئت لأهدمه ، وتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك ؟ فقال : «عبدالمطلب» : إني رب الإبل (أى صاحبها) وإن للبيت رباً سيحميه .

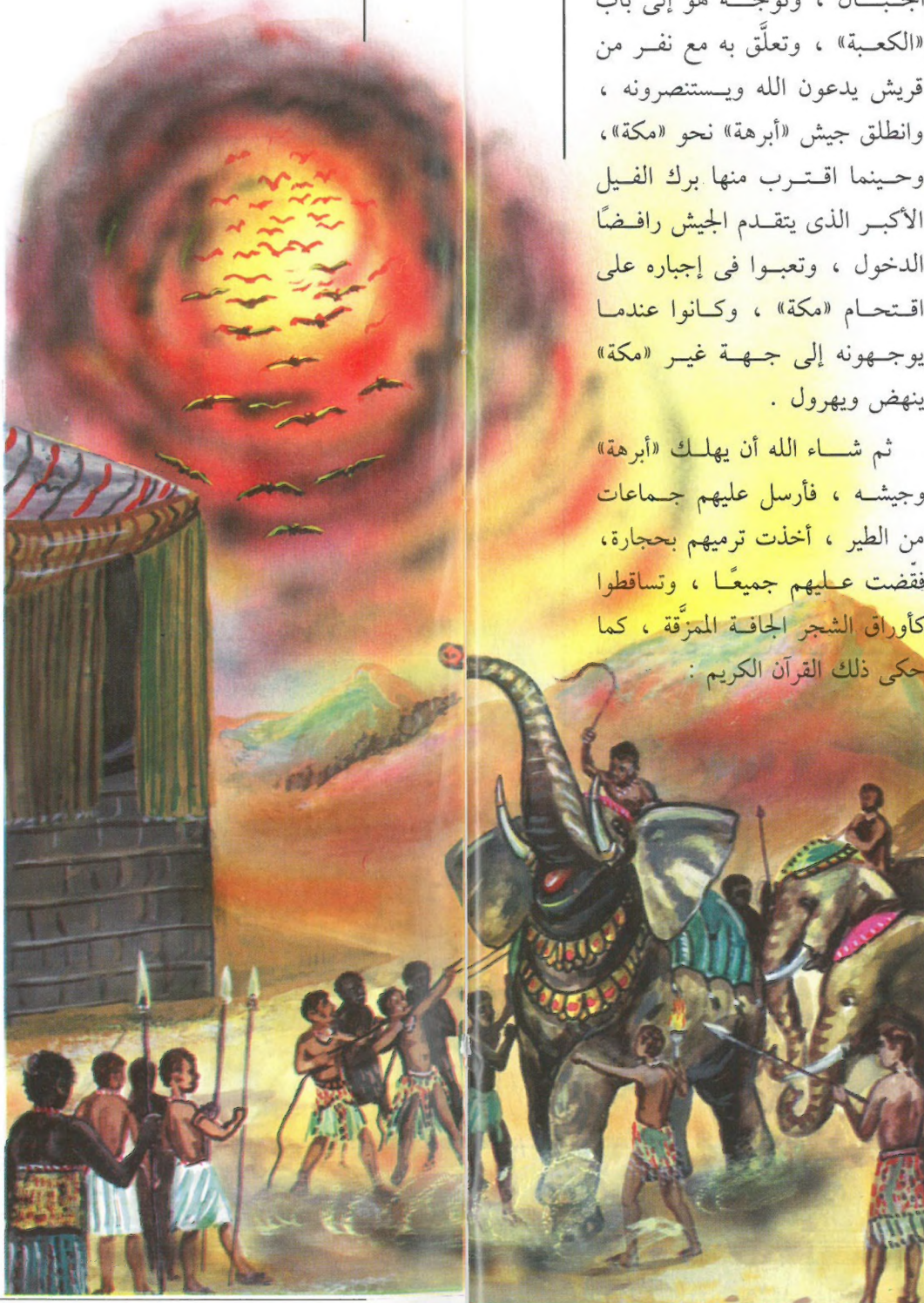
قال «أبرهة» : ما كان ليمنع منى فرد عليه «عبد المطلب» : أنت وذاك ، ثم رد «أبرهة» الإبل لعبدالمطلب .

أمر «عبدالمطلب» قريشاً بالخروج من «مكة» ، والاحتفاء فى شعاب الجبال ، وتوجه هو إلى باب «الكعبة» ، وتعلق به مع نفر من قريش يدعون الله ويستصرونه ، وانطلق جيش «أبرهة» نحو «مكة» ، وحينما اقترب منها برك الفيل الأكبر الذى يتقدم الجيش رافضاً الدخول ، وتعبوا فى إجباره على اقتحام «مكة» ، وكانوا عندما يوجهونه إلى جهة غير «مكة» ينهض ويهرول .

ثم شاء الله أن يهلك «أبرهة» وجيشه ، فأرسل عليهم جماعات من الطير ، أخذت ترميهم بحجارة ، فقضت عليهم جميعاً ، وتساقطوا كأوراق الشجر الجافة الممزقة ، كما حكى ذلك القرآن الكريم :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) ﴾

[سورة الفيل]



* مولد النبي ﷺ :

وفى يوم الاثنين الموافق (١٢) من شهر ربيع الأول سنة ٥٧٠م (عام الفيل) ولدت «أمته» وليدها ، يتالفاً النور من وجهه الكريم ، أكحل أدعج مختوناً ، يرنو ببصره إلى الأفق ، ويشير بسبابتة إلى السماء ، فهرولت قابله ، وهى «أم عبد الرحمن بن عوف» إلى جده «عبدالمطلب» تزف إليه البشرى ، وتنقل إليه ذلك الخبر السعيد ، فكاد الرجل الوقور يطير من الفرحة ، وفرح الهاشميون جميعاً ، حتى إن عمه «أبالهب» اعتق الجارية «ثوية» التى أبلغته الخبر ، وكانت أول من أرضعت خير البشر .

سمى «عبدالمطلب» حفيده «محمداً» ، وهو اسم لم يكن مألوفاً أو منتشرًا فى بلاد العرب ، ولما سئل عن ذلك ، قال : رجوت أن يكون محموداً فى الأرض وفى السماء .

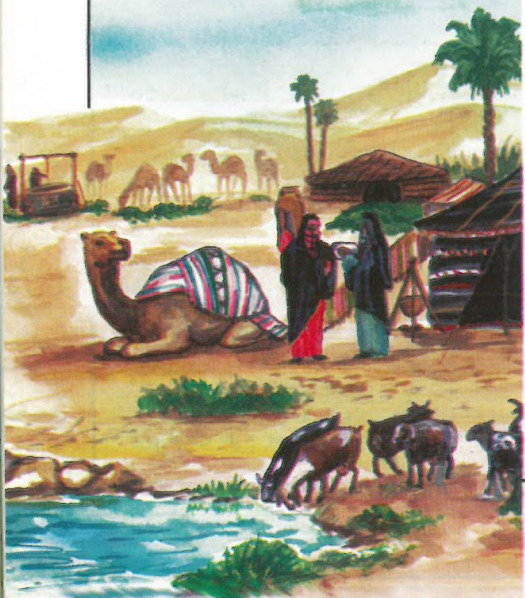
* طفولته وصباه :

فى اليوم السابع لميلاد النبي ﷺ أمر جده بجزور فنحرت ، وأقام حفلاً دعا إليه كبار رجالات «قريش» احتفاءً بهذا الوليد الكريم ، وانتظرت «أمته» المرضعات اللائى كن يأتين من البادية إلى «مكة» ، ليأخذن الأطفال إلى ديارهن لإرضاعهم بأجر وكانت عادة أشرف «مكة» ألا ترضع الأم أطفالها ، مفضلين أن تكون المرضعة من البادية ؛ لتأخذ الطفل

معها ، حيث يعيش فى جو ملائم لنموه ، من سماء صافية ، وشمس مشرقة ، وهواء نقي ، وكانت هناك قبائل مشهورة بهذا العمل مثل «بنى سعد» .

وكان محمد من نصيب واحدة منهن تدعى «حليمة السعدية» لم تكن تدرى حين أخذته أنها أسعد المرضعات جميعاً ، فتوالت عليها البركات ، بفضل هذا الطفل الرضيع ، فسمت أغنامها العجاف ، وزادت ألبانها وبارك الله لها فى كل ما عندها .

مكث «محمد» عند «حليمة» عامين ، وهو موضع عطفها ورعايتها ، ثم عادت به إلى أمه ، وألحت عليها أن تدعه يعود معها ، ليبقى مدة أخرى ، فوافقت «أمته» وعادت به «حليمة» إلى خيام أهلها .



* حادث شق الصدر :

بقى «محمد» عند «حليمة السعدية» بعد عودتها ثلاثة أعوام أخرى ، حدثت له في آخرها حادثة شق الصدر ، وملخصها كما ترويهما أوثق مصادر السيرة أن «محمدًا» كان يلعب أو يرمى الغنم مع أتباعه من الأطفال ، خلف مساكن «بنى سعد» فجاءه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأخذهما فأضجعهما على الأرض ، وشقا صدره وغسلاه ، وأخرجاه منه شيئًا ، ثم أعاده كما كان .

ولما رأى الأطفال ما حدث ، ذهب واحد منهم إلى «حليمة» فأخبرها بما رأى ، فخرجت فرقة هي وزوجها «أبو كبشة» فوجدا «محمدًا» ممتقعًا لونه ، فسألته «حليمة» عما حدث فأخبرها ، فخشيت أن يكون ما حدث له مس من الجن ، وتخوفت عاقبة ذلك على الطفل ، فأعادته إلى أمه ، وقصت عليها ما حدث لطفلها .

* موت أمة بنت وهب :

لما بلغ «محمد» السادسة من عمره أخذته أمه في رحلة إلى «يثرب» ؛ ليزور معها قبر أبيه ، ويرى أحوال جده «عبدالمطلب» من «بنى النجار» .

وفي طريق العودة مرضت «أمة» واشتد عليها المرض ، وتوفيت في مكان يُسمى «الأبواء»



بين «مكة» و«المدينة» . وهكذا شاءت إرادة الله أن يفقد «محمد» أمه ، وهو في هذه السن الصغيرة ، وهو أشد ما يكون احتياجًا إليها ، فتضاعف عليه اليتيم ، ولكن لله في خلقه حكم لا يعلمها إلا هو تعالى ، فإن كان «محمدًا» قد حُرِمَ من أبويه . فإن الله هو الذي سيتولى رعايته وتعليمه .

ضم «عبدالمطلب» حفيده «محمدًا» إلى كفالته ؛ لأن ابنه «عبدالله» لم يترك ثروة كبيرة ، وكل ما تركه كان خمسة من الإبل ، وبعضًا من الأغنام ، و«أم أيمن» (بركة) التي أصبحت حاضنة «محمد» وراعيته بعد فقد أمه ، وقد عوضته كثيرًا عن حنان الأم .

لكن كفالة «عبدالمطلب» لمحمد لم تدم طويلا ، إذ استمرت عامين بعد وفاة «أمة» ، كان لهما نعم

الأب الحنون ، فحزن «محمد» على فقد حزنًا شديدًا ، وبكاء بكاءً مرا وهو يودعه إلى مشواه الأخير .

وبعد وفاة «عبدالمطلب» انتقل «محمد» إلى كفالة عمه «أبي طالب» ، ومع أنه لم يكن أكثر أعمامه مالا وأوسعهم ثراءً ، بل كان أكثرهم أولادًا وأثقلهم مؤونة ؛ فإنه كان شديد العطف عليه ، والرعاية له ، فضمه إلى عياله ، وكان يفضلهم عليهم في كل شيء .

* اشتغاله برعى الغنم :

لم يرض «محمدًا» أن يكون عالة على عمه ، وبخاصة أنه يرى ضيق ذات يده ، فأراد أن يعمل ليعول نفسه ، ويكسب قوته ، ويساعد عمه إن أمكن ذلك ، فاشتغل برعى الأغنام ، وهو عمل يناسب سنه ، وهذه كانت حرفة الأنبياء من قبله ، لقول النبي ﷺ : «ما من نبي إلا ورعى الغنم» ، قيل : وأنت يا رسول الله ؟ قال : «وأنا» .

* رحلته الأولى إلى الشام :

وجد «محمد» في عمه «أبي طالب» عطفًا وحنانًا عوضه عن فقد جده ، فكان يؤثره على أولاده ، ولا يكاد يرد له طلبًا ، فلما رغب «محمد» في أن يصحب عمه في رحلة إلى «الشام» ، أجابه إلى ذلك ، رغم أنه كان يخشى عليه من طول الطريق ، ومشقة السفر ، وهو لم يزل غلامًا صغيرًا لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره .

انطلق «محمد» مع عمه في تلك الرحلة إلى «الشام» ، وهناك حدثت له قصة عجيبة لفتت أنظار القافلة كلها ، لكنهم لم يستطيعوا لها تفسيرًا ، وذلك أن راهبًا نصرانيا ، يدعى «بحيرا» كان يتعبد في صومعته في بادية «الشام» ، على طريق القوافل ، ولم يكن يحفل بأحد يمر عليه ، لكنه في هذه المرة نزل من صومعته لما رأى القافلة القرشية وذهب إليهم ، ودعاهم إلى طعام ،

وطلب منهم أن يحضروا جميعًا ولا يتركوا أحداً يتخلف .

ولما حضر «محمد» مع القوم سأل الراهب «أبا طالب» : من يكون منك هذا الغلام ؟ فقال : ابني ، فقال له : ما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ، فقال : ابن أخي ، قال : صدقت . ثم رأى خاتم النبوة على كتف النبي ﷺ ، وقال لأبي طالب : ارجع بابن أخيك هذا فسوف يكون له شأن عظيم ، واحذر عليه اليهود ، فلو عرفوا منه الذي أعرف ليمسوه منهم شر .

وقعت كلمات الراهب من «أبي طالب» موقعًا جميلا ، فشكر الراهب على هذه النصيحة الغالية التي لا تصدر إلا عن رجل صالح ، وعاد بابن أخيه إلى «مكة» .

* رحلته الثانية إلى الشام :

في تجارة خديجة :

ذهب «محمد» هذه المرة إلى «الشام» في مهمة تجارية ، لا للتنزه أو الزيارة كما كان في الأولى ، ذلك أن «أبا طالب» رأى ابن أخيه قد بلغ مرحلة الشباب ، ولا بد له من أن يتزوج ويعول أسرة ، ولكن من أين لمحمد بالمال ؟ فقال لابن أخيه بعد أن أحسن له التدبير : «يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي ، وقد اشتد الزمان علينا ، وقد بلغني أن خديجة بنت خويلد استأجرت فلانًا بكيرين (أي جملين صغيرين) ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته فهل لك أن أكلهما ؟» قال «محمد» : «ما أحببت ياعمى» .



ويكشف هذا الحوار القصير الظروف المالية الصعبة التي كان يمر بها «أبو طالب»، لكن ذلك لم يجعله يضيق بابن أخيه، وإنما خاطبه في رفق وشاوره قبل أن يفتحه في أمر عمله مع «خديجة»، وفي الوقت نفسه نلمس أن «محمدًا» ﷺ كان يشعر بما يعانيه عمه، فلم يملك إلا أن يقول له: «ما أحببت يا عمي».

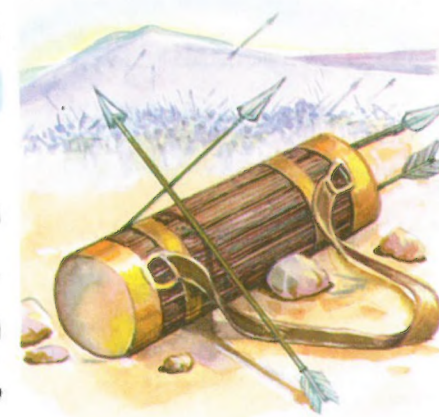
توجه «أبو طالب» إلى «خديجة» وقال لها: «هل لك يا خديجة» أن تستأجري «محمدًا»؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانًا ببيكرين، ولسنا نرضى لمحمد دون أربعة». فأجابت «خديجة» بلهجة تحمل الوداد والاحترام للشيخ الوقور: «لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألته لقريب حبيب»^(١).

خرج «محمد» في تجارة «خديجة» يصحبه غلامها «ميسرة» وكان صاحب خبرة في التجارة ومعرفة بأصولها، أثيراً لديها، تأمّنه على مالها وتجاريتها، وكانت هذه الرحلة ناجحة وموفقة كل التوفيق، وربحت أكثر من أية مرة سابقة.

وفي طريق العودة اقترح «ميسرة» على «محمد» أن يسبقه إلى «مكة»؛ ليكون أول من يبشر

«خديجة» بعودتهما سالمين وبنجاح تجارتها وعندما بلغ «خديجة» الأمر سرّت أيما سرور، وأعجبت بما قصّه «ميسرة» على سمعها من شأن «محمد»، من أمانة، ورقة شمائل، وسمو خلق، وازدادت إعجاباً لما سمعت «محمدًا»، وما لبث هذا الإعجاب أن تحول إلى تقدير ورغبة في الزواج.

* مشاركة محمد في الحياة العامة:



شارك «محمد» ﷺ قومه في حياتهم العامة قبل البعثة، فاشترك في «حرب الفجار»، وهو في نحو الخامسة عشرة من عمره، وهي حرب وقعت أحداثها في الأشهر الحرم، ولذا سميت بحرب الفجار، وسببها أن «النعمان بن المنذر» أمير «الحيرة» اعتاد أن يرسل كل موسم قافلة تجارية إلى سوق «عكاظ» بالقرب من «مكة» المكرمة، وكان يستأجر لها حراساً

من القبائل القريبة من «مكة»، فعرض رجلان أنفسهما لهذه المهمة، أحدهما من «هوازن» يسمى «عروة»، والآخر من «كنانة» يسمى «البرّاض»، فاختر «النعمان» «عروة»، فقتله «البرّاض»، فوقع القتال بين قبيلتيهما لهذا السبب، واستمر أربع سنوات وانتهى بالصلح بين المتحاربين، وقد وصف النبي ﷺ مشاركته في هذه الحرب بقوله: «كنت أنبل على أعمامي» أي يرد إليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

* حلف الفضول:

وكما شارك «محمد» قومه في الحرب فقد شاركهم في السلم؛ حيث شهد «حلف الفضول»، الذي تكون عقب حرب الفجار، وكان أول من دعا إليه عمه «الزبير ابن عبد المطلب»؛ لنصرة المظلوم أيا كان، من أهل «مكة» أو من غيرهم، واجتمعت بعض بطون «قريش»: «بنو هاشم» و«بنو زهرة»، و«بنو أسد»، و«بنو تيم» في دار «عبدالله بن جدعان»، وتعاهدوا ليكونن مع المظلوم حتى يردّ إليه حقه. ويصف النبي، مشاركته في هذا الحلف بقوله: «لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار «عبد الله بن جدعان» ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى في الإسلام لأجبت».



* بناء الكعبة:

نزل سيل على «الكعبة» قبل بعثة النبي بحوالي خمسة أعوام، هدم جدرانها، فعزمت «قريش» على إعادة بنائها، وقسمت العمل بين بطونها، وكان النبي ﷺ يعمل بنفسه معهم، ويحمل الحجارة، حتى إذا ارتفع البناء نحو قامة الرجل اختلفوا فيمن يضع «الحجر الأسود» في مكانه؛ كل قبيلة تريد أن تحوز هذا الشرف دون غيرها، واشتد الخلاف بينهم حتى تداعوا إلى الحرب، ففزع «أبو أمية بن المغيرة» وخشى عاقبة ذلك، فأشار عليهم بأن يحتكموا إلى أول رجل يدخل عليهم، فوافقوا على ذلك.

كان النبي ﷺ أول داخل عليهم، فاستبشروا خيراً، وقالوا: هذا الأمين رضينا به حكماً، فطلب منهم أن يبسطوا ثوباً، ثم وضع الحجر فيه، وطلب من زعماء القبائل أن يمسك كل منهم بطرف، ليتمكّنوا من رفع الحجر

إلى موضعه، ثم أخذه النبي ﷺ بيده الشريفة، ووضع في مكانه.

* زواج محمد من خديجة:

كانت «خديجة بنت خويلد الأسدية» امرأة شريفة، ذات حسب وجمال ومال، تزوجت مرتين من قبل، وعزمت بعد موت زوجها الثاني ألا تتزوج مرة أخرى، وأن تتفرغ لإدارة ثروتها، وتنمية تجارتها.

ولكنها حين اتصلت بمحمد ﷺ وعمل في تجارتها، ورأت فيه من خصال الخير أعجبت به ورغبت في الزواج منه، وأسرت بذلك إلى إحدى صديقاتها المقربات، فذهبت إلى «محمد» وسألته: «ما يمنعك أن تتزوج؟» قال: «ما بيدي ما أتزوج به». قالت: «فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تحب؟» قال: «فمن هي؟» قالت: «خديجة».

فقال: «كيف لي بذلك؟» قالت: «على ذلك»، فوافق على الفور، وعادت «نفيسة» إلى «خديجة»، تزف إليها تلك البشري فسرت سروراً عظيماً.

وذهب «محمد» مع أعمامه إلى بيت «خديجة» لإعلان الخطبة، وألقى «أبو طالب» خطبة قصيرة أثنى فيها على ابن أخيه، وأنه لا يعدله شاب في «قريش»، في خلقه وصدقه وأمانته، وإن كان قليل المال، فالمال عرض زائل، ثم وجه كلامه إلى أهل «خديجة» فقال: «إن محمدًا له في «خديجة» رغبة، ولها فيه مثل ذلك»، فوافقوا على الخطبة، وأقاموا وليمة بهذه المناسبة السعيدة، وقدم «محمد» لخديجة صداقاً قدره عشرون بكرة، ثم تم الزواج، وانتقل «محمد» إلى بيت «خديجة» حيث عاش معها.

وهكذا شاءت الأقدار لهذه السيدة الكريمة أن تقترن بسيد الخلق أجمعين ، وأن تصبح أول أم للمؤمنين ، وأن تكون خير عون له ، فكانت أول من آمن به وكانت توأسيه بمالها ، كما كانت حياته معها التي دامت نحو خمسة وعشرين عاماً تملؤها السعادة ، ورزقه الله منها ستة أولاد ؛ اثنين من الذكور هما : «القاسم» و«عبدالله» ، وقد ماتا قبل البعثة ، وأربع بنات ، هن : «زينب» وقد تزوجها ابن خالتها «أبو العاص بن الربيع» ، و«رقية» و«أم كلثوم» وقد تزوجهما «عثمان بن عفان» ، واحدة بعد الأخرى و«فاطمة» وتزوجت بعلي بن أبي طالب .

* من الزواج إلى البعثة :

كان عمر النبي ﷺ حين تزوج السيدة «خديجة» خمساً وعشرين سنة ، وكان عمره حين بعثه الله بالرسالة على رأس الأربعين ، فماذا كان يعمل في المدة التي بين الزواج والبعثة ؟

إن مصادر السيرة النبوية لم تمدنا بمعلومات كثيرة عن هذه الفترة من حياته ، سوى أنه كان دائم التأمل

في الكون الفسيح ، والتفكير في القوة التي أبدعته وأحكمت صنعه ، وأنه رفض ما عليه قومه من عبادة الأصنام ، وما غرقوا فيه من الفساد والمجون ، فلم يسجد لصنم ، ولم يحضر مجلس لهو وعبث ، بل كان يعتكف شهراً من كل سنة في غار «حراء» ، يتعبد فيه ، ويجد فيه فرصة مناسبة للتفكير والتأمل ، بعيداً عن صخب «مكة» وضجيجها . وكان شهره المفضل الذي يقضيه في الغار هو شهر رمضان المبارك .

ويبدو أنه في تأمله هذا كان ينشد مخرجاً للعالم مما هو فيه من شرك ووثنية ؛ لأن ما بقي من الشرائع القديمة لم يكن كافياً ليربح نفسه المشوقفة إلى الحق المجرد والحققة المطلقة ، وظل كذلك حتى أتاه «جبريل» - عليه السلام - بالوحي .

البعثة

* بدء الوحي :

ظل «محمد» ﷺ يتردد على غار «حراء» حتى شارف الأربعين من عمره ، وكان أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصادقة ، كما جاء في حديث «عائشة» ، فكان لا يرى رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح وزادته رؤاه الصادقة أملاً في قرب الوصول إلى الحقيقة .

وبينما هو في غار «حراء» غارق في تأمله وتدبره ؛ إذ جاءه «جبريل» - عليه السلام - في ليلة من ليالي رمضان ، فقال : «اقرأ» ، قال : «ما أنا بقارئ» ، قال : «فأخذني فغطني ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : «اقرأ» ، قلت : «ما أنا بقارئ» ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)
خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) ﴾

فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده ، فدخل على «خديجة بنت خويلد» -رضي الله عنها- فقال : «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : «لقد خشيت على نفسي» ، فقالت «خديجة» : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق» .

[صحيح البخاري كتاب بدء الوحي]

طمأنت «خديجة» «محمدًا» بتلك الكلمات الصادقة والعبارات المواسية ، وذهبت به إلى ابن عمها «ورقة بن نوفل» أحد الخنفاء العرب ، وكان قد اعتنق النصرانية ، فقالت له : «يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له «ورقة» : يا ابن أخى ماذا رأيت ، فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له «ورقة» : هذا الناموس (جبريل أمين الوحي) الذي نزله الله على «موسى» ، ياليتني فيها جَدَعًا ، ليتني أكون حيا ، إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : «أو مخرجي هم؟» قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا ، ثم لم يلبث «ورقة» أن توفى وفتر الوحي» .

توقف الوحي بعد ذلك فترة من الزمن حتى شق على «محمد» فأحزنه ذلك ، فجاءه «جبريل» بسورة «الضحى» ، يقسم له ربه -وهو الذي أكرمه بما أكرمه به - ما ودعه وما قلاه .

* المسلمون الأوائل :

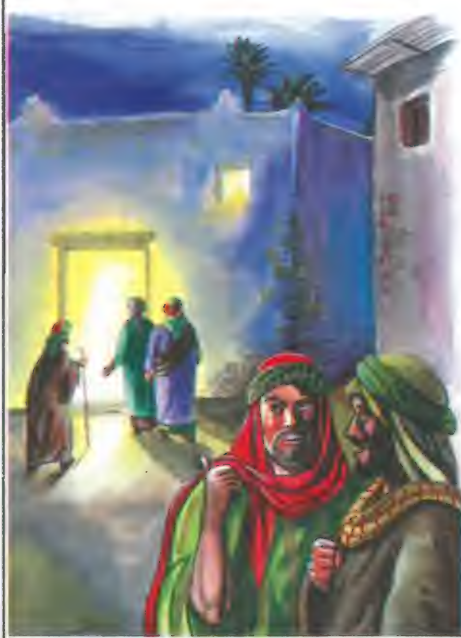
أخذ النبي ﷺ يدعو إلى الإسلام سرا فكانت «خديجة بنت خويلد» -رضي الله عنها- أول الناس إسلامًا وإيمانًا بالله ورسوله ، ثم تلاها «علي بن أبي طالب» -رضي الله عنه- وكان في نحو العاشرة من عمره ، ثم «زيد بن حارثة» مولى رسول الله ﷺ ، ثم أسلم «أبو بكر بن أبي قحافة» ، وكان رجلاً مألَفًا لقومه ، محببًا سهلاً ، فأسلم على يديه طائفة من كبار الصحابة ، أمثال : «عثمان ابن عفان» ، و«الزبير بن العوام» ، و«عبد الرحمن بن عوف» ، و«سعد ابن أبي وقاص» ، و«طلحة بن عبيدالله» .

ثم أسلمت بعد هؤلاء طائفة أخرى ، عد منهم «ابن إسحاق» نحو خمسة عشر فردًا ما بين رجل وامرأة ، هم : «أبو عبيدة بن الجراح» ، و«أبو سلمة بن عبد الأسد» و«عثمان بن مظعون» ، وأخوه «قدامة» و«عبدالله» ، و«عبيدة بن الحارث بن المطلب»

و«سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل» ، وامراته «فاطمة بنت الخطاب» ، و«أسماء» و«عائشة» بنتا «أبي بكر» ، و«خباب بن الأرت» ، و«عمير بن أبي وقاص» ، و«عبدالله بن مسعود» ، و«مسعود بن القاري» -رضي الله عنهم- وكان ذلك في مرحلة الدعوة السرية .

* الدعوة السرية :

كان النبي ﷺ يعلم تمام العلم عناد «قريش» وكبرياءها وإصرارها على التمسك بالقديم ، واعتزازها بآبائها وأجدادها وعبادتها للأصنام ؛ لذا فلن تُسلم بسهولة ، أو تدعن لدعوته ، بل ستقاومه حتى آخر سهم في جعبتها ، لأنها اعتقدت أن الإسلام يهدد مصالحها ويقضى على سيطرتها على «مكة» وما حولها ، ولو علمت أن الإسلام سيجعلها سيدة العالم ما قاومته لحظة واحدة ولرَحَّبت بدعوته .





الجهاد في العهد المكي

قد يفهم بعض الناس أن المقصود بالجهاد الحرب فقط ، لكنه يعني كثيراً من أنواع الجهاد ، فالصبر على الأذى والمكاره لا يقل أهمية عن الجهاد بالسلاح ، وقد تحمّل النبي ﷺ هو وأصحابه صنوفاً من الأذى صبّها عليهم المشركون في الفترة المكية ، فكانوا يسبون ويعرضون له ، ويرجمونه بالحجارة ، ويلقون عليه القاذورات ، وأشهر من صنع ذلك معه : «عقبة بن أبي معيط» ، و«أبو جهل» الذي حاول قتل النبي ﷺ عند «الكعبة» .

وكان موقفهم هذا من النبي ﷺ عناداً له وحسداً من عند أنفسهم ، لأنهم كانوا يعرفون أن دينه حق ، وأن الذي يأتيه وحى من السماء ، ولكن حال الحسد بينهم وبين اتباعه وتصديقه .

وصبّ المشركون جام غضبهم على المستضعفين من المسلمين ، وأذاقوهم ألواناً من العذاب ، مثل : «بلال بن رباح» الذي لم ينقذه من العذاب إلا «أبو بكر الصديق» الذي اشتراه من سيده «أمية بن خلف» وأعتقه ، و«آل ياسر» وكانوا يُعَذَّبون إذا حميت الظهرية برمضاء «مكة» ، وكان الرسول يمر بهم ولا يملك أن يمنع عنهم العذاب ، فيقول لهم : «صبراً آل ياسر فمواعدكم الجنة» ، فصبروا واحتملوا ولم

يتخلوا عن دينهم ، حتى إن «أم عمار» طعنها «أبو جهل» بحربة فقتلها وهي على إسلامها .

* الهجرة إلى الحبشة :

اشتد الأذى والتعذيب بأصحاب النبي ﷺ دون أن يقدر على الدفاع عنهم ، وكان هو في منعة من أهله إلى حد ما ، يقف بجانبه «أبو طالب» يدفع عنه الأذى ، ففكر لهم في مخرج مما يلاقونه من التعذيب ، فقال لهم : «لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه» ، فخرج

بعض المسلمين إلى أرض «الحبشة» مخافة الفتنة ، وفروا إلى الله بدينهم ، وكانت هجرتهم أول هجرة في الإسلام ، وبلغ عددهم عشرة رجال وأربع نسوة ، منهم : «عثمان بن عفان» وزوجته «رقية» بنت رسول الله ﷺ .

ثم خرجت مجموعة أخرى من المسلمين إلى «الحبشة» ، كان عددها أكبر من الأولى ؛ إذ بلغوا نحواً من ثمانين رجلاً وامرأة ، وظلوا مدة طويلة في «الحبشة» ، بعد أن وجدوا الأمن والحماية من ملكها ، وعادت آخر مجموعة من هناك مع «جعفر» في أول السنة السابعة من الهجرة .

وقال تعالى :

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)﴾

الشعراء : ٢١٤ - ٢١٦

وامثالاً لهذا الأمر الإلهي بدأ النبي بدعوة الأقربين من أهله وعشيرته إلى الإسلام ، وصنع لهم طعاماً في بيته ، وبعد أن تناولوه ، حدثهم قائلاً : «ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به ، فقد جئتمكم بخيرى الدنيا والآخرة ، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه ، فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر؟» فأعرضوا عنه جميعاً ، وهموا بتركه عدا «على ابن أبي طالب» ، وانصرفوا دون أن يستجيبوا لدعوة النبي ، غير أنهم لم يبادئوه بأذى في أول الأمر ، غير أن عداوتهم له بدأت حين شرع في تسفيه آلهتهم .

آيات القرآن الكريم ، ويعلمهم شرائع الإسلام ، واستمرت هذه الدعوة السرية نحو ثلاث سنوات ، ازداد فيها عدد المسلمين زيادة يسيرة ويبدو أن خبر الدعوة لم يعد سرا بصورة مطلقة بالنسبة إلى «قريش» ، فقد تسرب إليها ، لكنها لم تعبأ بهذا في البداية ، ولعلها كانت واثقة بقوتها وقدرتها على مقاومة هذه الدعوة من ناحية ، وواثقة بأن حملها على ترك دين آبائها وأجدادها أمر صعب من ناحية أخرى .

* الجهر بالدعوة وموقف قريش :

أمر الله تعالى نبيه «محمداً» ﷺ أن يجهر بالدعوة بعد مضي ثلاث سنوات من الدعوة سرا ، فقال :

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾

[الحجر : ٩٤]



أدرك النبي ﷺ ذلك ، فقرر أن تكون دعوته لدينه سرا في بادئ الأمر ، وبدأ في دعوة أصدقائه وأقرب الناس إليه ، ومن يأنس فيهم خيراً واستعداداً لقبول الحق والهدى ، فأمن به - إلى جانب من ذكرنا - عدد من رجالات «قريش» ونسائها ، وطائفة من العبيد والفقراء والضعفاء الذين رأوا في الدين الجديد الخلاص مما هم فيه من شقاء وبؤس ، مثل : «بلال ابن رباح» ، و«صهيب الرومي» ، و«آل ياسر» ، وكان النبي ﷺ يجتمع بمن أسلم سرا في دار «الأرقم بن أبي الأرقم» يتلو عليهم

* إسلام عمر بن الخطاب :



بعد هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة أسلم «عمر بن الخطاب»، وكان إسلامه حدثاً كبيراً في «مكة»، ونصراً عظيماً للإسلام؛ إذ كان من الشخصيات القوية في «مكة»، ومن أشد أعداء المسلمين، حتى إنه أسلم في الوقت الذي عزم فيه على الذهاب لقتل الرسول ﷺ، فأراد الله به الخير، واستجاب الله لدعوة النبي الذي كان دائماً يردد: «اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين»، «عمر بن الخطاب»، و«عمرو بن هشام» (أبي جهل)!

وبإسلام «عمر» قوى موقف المسلمين كما اشتد من قبل بإسلام «حمزة بن عبد المطلب» عم النبي ﷺ، وأهاب بالمسلمين أن يصلوا عند «الكعبة» تحت حمايته، فغلبت «قريش» على أمرها، لعرفتها بقوة شكيمة «عمر» ومضاء عزيمته، فلم تتعرض لهم، وبدأت تلجأ إلى أسلوب آخر في مواجهة الدعوة، وهو أسلوب المقاطعة.

* أسلوب المقاطعة :

استعملت «قريش» مع النبي ﷺ وأصحابه أساليب العنف والتعذيب والاضطهاد، فلم تنجح في ردهم عن دعوتهم، فلجأت إلى أسلوب الترغيب والمساومة، فعرضت على النبي ﷺ، الملك

ورد أصحابه عن دينهم الجديد، لجأت قريش إلى أسلوب المقاطعة، ولم يكن هذا مألوفاً في بلاد العرب، ولعله لم يكن مألوفاً كذلك في أى مكان في العالم آنذاك، ففرضت حصاراً على «بنى هاشم» و«بنى المطلب» جميعاً، ممن يقفون مع النبي ﷺ ويزودون عنه، سواء من أسلم منهم أو لم يسلم، وقررت ألا تباع لهم أو تشتري معهم، وألا تزوجهم أو تتزوج منهم، وألا تتزاور معهم، عقاباً لهم على مساندتهم للنبي ﷺ، وكتبوا بتلك المقاطعة وثيقة في صحيفة، علقوها في «الكعبة»، ليكون لها احترام والتزام.

واستمر هذا الحصار القاسي المجرد من الإنسانية نحو ثلاث سنوات، عانى منه «بنو هاشم» و«بنو المطلب» أشد المعاناة، وهم صابرون صامدون، لم يتخل أحد منهم عن النبي ﷺ، حتى تحركت النخوة والشهامة في نفوس بعض رجالات «قريش»، كزهير بن أبي أمية المخزومي، و«المطعم بن عدي»، و«أبي البختري بن هشام»، لما رأوا ما يعانيه «بنو هاشم» و«بنو المطلب» من هذه المقاطعة الظالمة، فسعوا في نقضها وإنهائها، وأقسموا على تمزيق الصحيفة، وكان لهم ما أرادوا، فخرج النبي ﷺ وأصحابه من شعبهم الذي كانوا محاصرين فيه؛ ليستأنف رسول الله ﷺ دعوته إلى دين الله.

عام الحزن

استأنف النبي ﷺ دعوته بعد انتهاء المقاطعة، واستبشر المسلمون خيراً بعهد جديد يمارسون فيه حياتهم الطبيعية، لكن وقع للنبي حدثان جليان في عام واحد وهو العام العاشر من البعثة، فقد مات كل من عمه «أبي طالب»، وزوجته «خديجة»، وكاننا نعم العون له والمساندة في تبليغ رسالته، وعلى الرغم من ذلك فإن النبي ﷺ لم يضعف ولم تهن له عزيمته؛ ومضى واثقاً بنصر الله يبلغ رسالة الله إلى العالمين.

* رحلته إلى الطائف :

أراد النبي ﷺ أن يخرج بالدعوة من نطاق «مكة»، لعله يجد نصيراً أو معيناً بعد المضايقات الشديدة التي لقيها من «قريش» وبخاصة بعد موت «خديجة» و«أبي طالب»، فقرر الذهاب إلى «الطائف»؛ لعرض دعوته على «ثقيف» رجاء

إيمانها به وبرسالته، لكنهم رفضوا ما عرضه عليهم، ولم يكتفوا بذلك بل سبوه وأهانوه، وسلطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم؛ ليضربوه بالحجارة، فتأثر بذلك رسول الله ﷺ، وبلغ إحساسه بالألم مداه، فجأ بالشكوى إلى الله قائلاً: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور

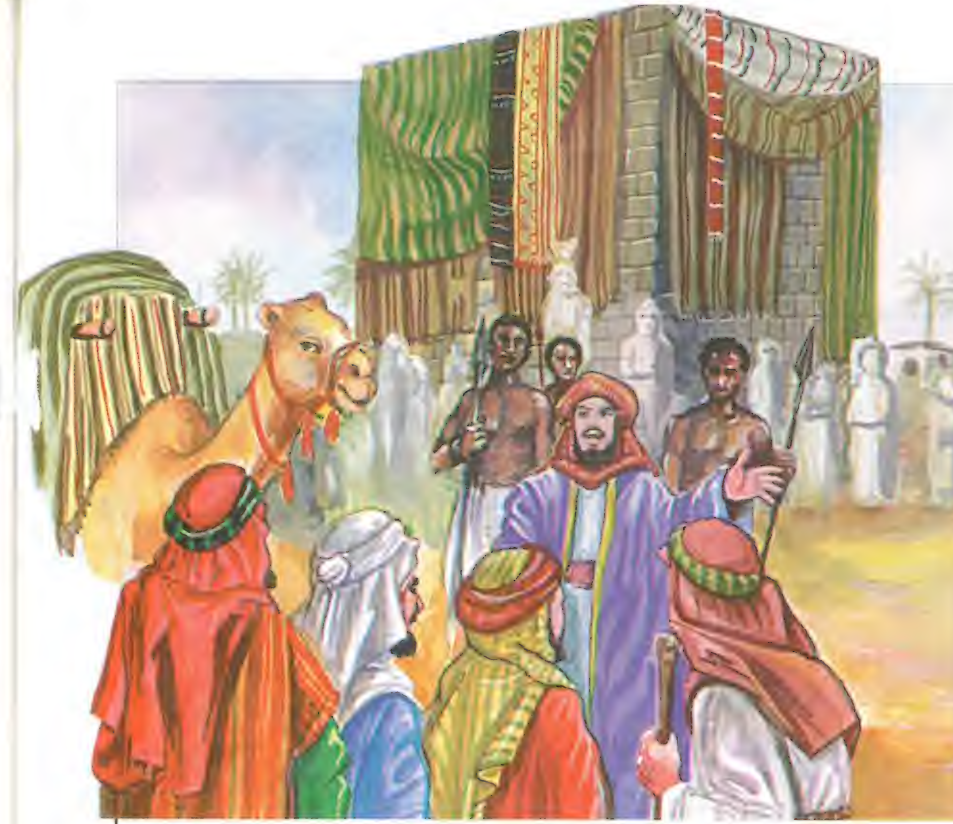
وبعد أن قال الرسول هذا الكلام المؤثر جاءه «جبريل» ومعه ملك الجبال عليهما السلام، فقال له ملك الجبال: «إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين»^(٢)، فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً، ودعا لهم، قائلاً: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

الإسراء والمعراج

في هذا الجو الذي بدا قائماً وحزيناً بعد موت «أبي طالب» و«خديجة بنت خويلد»، وما لقيه النبي من أهل «الطائف» والقبائل من عنت وإيذاء، أراد الله تعالى أن يسرّ عنه ﷺ وأن يعلمه ويطمئنه، فأسرى به إلى المسجد الأقصى وعرج به إلى السماء،



وموجز هذه الحادثة كما ترويها كتب الحديث والسيرة ، أن النبي ﷺ كان في بيت «أم هانئ بنت أبي طالب» فجاءه «جبريل» ومعه «البراق» (وهي دابة أصغر من البغل وأكبر من الحمار) وأخذه إلى «بيت المقدس» في «فلسطين» ، حيث وجد في استقباله جمعاً من الأنبياء ، فيهم «إبراهيم» و«موسى» و«عيسى» - عليهم السلام - جميعاً ، فصلى بهم إماماً ركعتين ، ثم عرج إلى السموات العلى ، حيث التقى بعدد من الأنبياء ، وتحدث إليهم وحيوه وهشوه ، ثم ارتقى فوق السموات العلى لمناجاة ربه ، وتلك مكانة لم يبلغها نبي ولا رسول ولا ملك من الملائكة المقربين ، وفي هذا اللقاء فرضت الصلوات الخمس ، وقد أراه الله من آياته الكبرى ، فرأى الجنة وما أعده الله من نعيم للمتقين ، ورأى النار وما أعده الله من عذاب للكافرين . ثم عاد إلى «مكة» في الليلة نفسها ، مزوداً بهذه الطاقة الروحية الهائلة .



أبو لهب يحذر القبائل من دعوة النبي

على الرغم مما تعرض له النبي ﷺ من إساءات أهل «الطائف» ، فإنه لم يئأس من دعوة الناس إلى الإسلام ، فكان يتصدى لوفود القبائل التي تأتي إلى «مكة» في موسم الحج ، يعرض عليهم رسالة الإسلام ، ومن الوفود التي التقى بها : وفد «كندة» ، و«بنو حنيفة» و«بنو عامر بن صعصعة» ، غير أنه لم يجد منهم مجيباً ، خاصة أن عمه «أبا لهب» كان يتتبع خطى رسول الله ﷺ ، فإذا رآه جلس إلى وفد قبيلة من قبائل العرب ؛ جاءهم قائلاً لهم : لا تصدقوه إنه كذاب ولا تطيعوه ولا تسمعوا له . واستمر هذا الوضع حتى أذن الله بالفرج من ناحية «يثرب» .

الهجرة إلى المدينة

لقد سبقت الهجرة إلى «المدينة» عدة أحداث كانت بمثابة مقدمة لها ، ومن بينها :

* بيعة العقبة الأولى :

بدأت بشائر النصر تأتي ريحها من «يثرب» ، فقد التقى النبي ﷺ أثناء عرض دعوته على القبائل بوفد من أهل «يثرب» في موسم الحج ، وعرض عليهم الإسلام ،

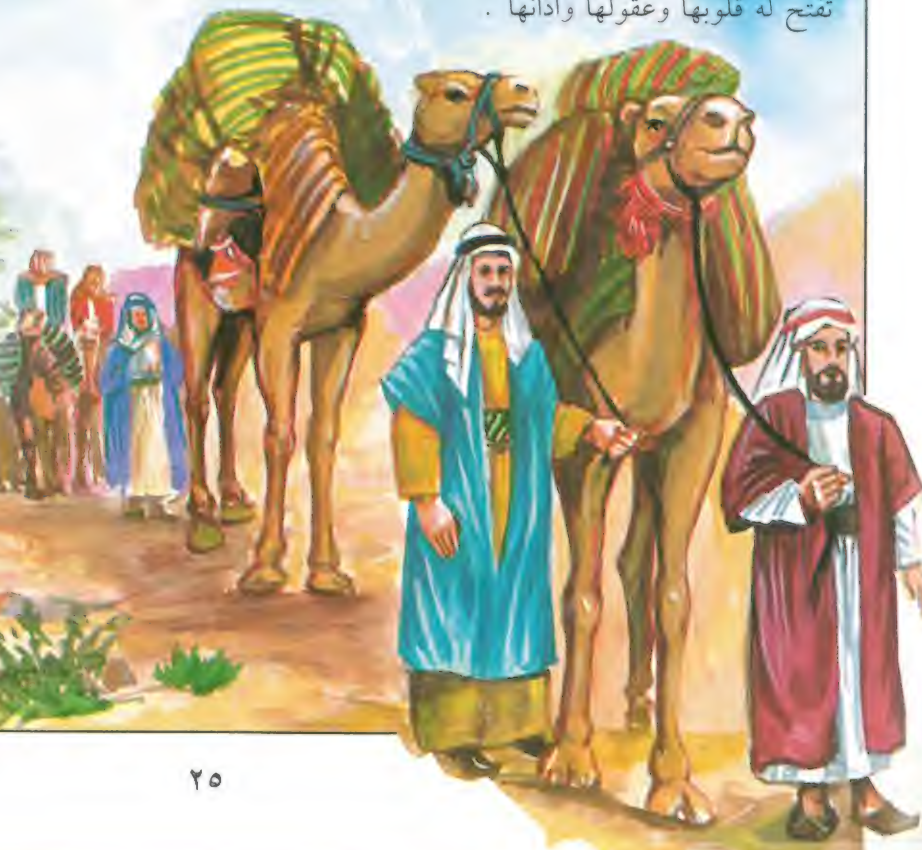
فلم يرفضوا ولم يسلّموا ، عدا واحداً منهم هو «إياس بن معاذ» فقد أسلم ، لكنهم حين عادوا إلى قومهم تحدثوا بما سمعوا من النبي ، فنبهوهم إلى أنه من المعقول أن يكون «محمد» هو النبي الذي كانت اليهود تحدثهم عنه دائماً ، وكان في «يثرب» كثير من قبائل اليهود (بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة) ، الذين علموا من كتبهم المقدسة أن هناك نبياً قد قرب زمانه وهو آخر الأنبياء .

وهذه المعلومات التي عرفها أهل «يثرب» من «الأوس» و«الخزرج» كانت مفيدة لهم وللإسلام ، فقد ذهب وفد منهم في الموسم التالي - العام الثاني عشر من البعثة والتقوا برسول الله ﷺ وهم على استعداد للاستجابة له والتجاوب معه ، فحدثهم عن الإسلام فأمنوا وبايعوه عند العقبة في «منى» «البيعة الأولى» ، على أن يؤمنوا بالله وحده ، ولا يشركوا به شيئاً ، وألا يسرقوا ، وألا يزنوا ، وألا يعصوا الله في معروف . وأرسل النبي معهم عند عودتهم إلى «يثرب» «مصعب بن عمير» ، يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين .

وكان هذا اللقاء بداية النصر وفتحة الخير ، فإذا كانت «مكة» قد تحجرت عقولها وصمت أذانها عن سماع صوت الحق ، فإن «يثرب» تفتح له قلوبها وعقولها وأذانها .

* بيعة العقبة الثانية :

فجح «مصعب بن عمير» فيما كُلف به نجاحاً عظيماً ، فازداد عدد المسلمين في «يثرب» على يديه زيادة كبيرة ، ولم يبق بيت فيها إلا ولذكر الإسلام والنبي فيه نصيب ، وعاد «مصعب» في الموسم التالي (العام الثالث عشر من البعثة) ، ليزف إلى النبي ﷺ بشرى نجاحه ، وإقبال أهل «يثرب» على الإسلام ، وأن وفداً كبيراً منهم سوف يأتي إلى «مكة» لمقابلته ، فقدم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان لهذا الغرض ، وتم اللقاء سرا عند العقبة في «منى» ، وسط أيام التشريق (الثلاثة الأيام الأولى من عيد الأضحى) ، وحضر اللقاء «العباس بن عبدالمطلب» ، وكان لا يزال مشركاً ، لكنه رغب في حضور هذا الاجتماع ؛ ليطمئن على ابن أخيه .



وفي هذا اللقاء بايع الحاضرون النبي ﷺ «بيعة العقبة الثانية» أو «بيعة القتال» ، لأن أهم ما تضمنته التزام أهل «يثرب» بالدفاع عن النبي عندما يهاجر إليهم ، ومنعه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم . وبعد أن تمت البيعة اتفق على ترتيبات هجرة أصحاب النبي ﷺ إلى «يثرب» ، وما يلتزمه أهل «يثرب» تجاههم من توفير المأوى والمعيش .

وقد أثبت أهل «يثرب» أنهم أهل كرم وشهامة وتضحية ، فقدموا لإخوانهم المهاجرين كل ما يحتاجون إليه ، بل وآثروهم على أنفسهم .

المؤامرة الكبرى

بدأ أصحاب النبي ﷺ من أهل «مكة» يهاجرون إلى موطنهم الجديد ، أفراداً وجماعات متخفين عن أعين «قريش» ، وبقي الرسول في «مكة» ، ووقعت «قريش» في حيرة شديدة ؛ لأنها لم تكن تعرف ما هو صانع ؛ هل سيبقى في «مكة» ، أم سيلحق بأصحابه إلى «يثرب» ؟ وفي هذا خطر شديد عليهم ، لأنه سيجد في «يثرب» المنعة والحماية والاستعداد للدفاع عنه ، مما قد يجرهم إلى الدخول في عداة سافر مع «يثرب» .



وأمام

هذه التطورات

المتلاحقة قررت «قريش» أن

تحزم أمرها سريعاً قبل أن يهاجر
النبي ويفلت من بين يديها ،
فعقدوا اجتماعاً في دار الندوة لم
يحضره أحد من «بنى هاشم» سوى
«أبي لهب» عم النبي ، وبحثوا فيه
الأمر ، وعُرضت ثلاثة اقتراحات
لمواجهة الموقف ، الأول : أن
يضعوا «محمدًا» في السجن ،
والثاني : أن ينفوه من «مكة» ،
والثالث : أن يقتلوه ، وحاز
الاقتراح الثالث الموافقة على تنفيذه ،
وهذه هي المؤامرة التي عبر عنها
القرآن الكريم ، في قوله تعالى :

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِيَشْتَبُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ
الْمَاكِرِينَ﴾

[الأنفال : ٣٠]

وبعد أن اتفقوا على قتله ،
ناقشوا كيفية تنفيذ ذلك ، فأروا أن
تشارك جميع القبائل في قتله ، بأن
تختار كل منها فتى شاباً قويا من
بين أبنائها ، وتعطيه سيقاً بتاراً ،
وأن يربط هؤلاء جميعاً أمام بيت
النبي ﷺ ليلاً ، حتى إذا خرج
عليهم في الصباح ضربوه ضربة
رجل واحد ، فيتفرق دمه في
القبائل ، ولا يقوى «بنو هاشم»
على محاربة أهل مكة جميعاً .

* على في فراش النبي ﷺ :

علم رسول الله بما بيته له
«قريش» ، فأعد العدة للهجرة ،
وأسر بذلك إلى صاحبه «أبي بكر
الصديق» الذي كان ينتظر هذا بلهفة
وشوق ، فأعد لذلك الأمر عدته
من قبل ، للقيام بأعظم رحلة في
تاريخ البشرية .

* النبي في غار ثور :

انطلقت الرحلة المباركة قاصدة
غار «ثور» في جنوب «مكة» ، مع
أن وجهتهم كانت «يثرب» في
الشمال ؛ لأن النبي ﷺ يعرف أن
«قريشاً» عندما تكتشف أنه نجا من
كيدهم ستتجه في بحثها عنه إلى
الشمال ، عندئذ يكون هو قد وصل
إلى الغار واختبأ فيه .

والحق أن خطة الهجرة كانت
دقيقة وسرية إلى أقصى حد ،
ووضع لها كل مافي وسع البشر أن
يفعلوه لضمان نجاحها ، فإذا لم
يفلح هذا كله ، فستأتي عناية الله

في اللحظة المناسبة لإنقاذ الموقف ،
فالذين علموا بأمر الهجرة كان
عددهم محدوداً وكانوا موضع ثقة ،
منهم : «عامر بن فهيرة» مولى «أبي
بكر» وراعي غنمه ، و«عبدالله بن
أبي بكر» ، وأخته «أسماء» ، وكل
واحد من هؤلاء له عمل محدد وفي
غاية الأهمية والخطورة ، فعبد الله
ابن أبي بكر كانت مهمته أن يسمع
أخبار «قريش» بالنهار في أنديتها ،
ثم يبلغها الرسول ﷺ إذا جاء
الليل ، وكانت مهمة «أسماء» إعداد
الطعام ، ولما لم تجد مرة حبلاً تربط
به حقيبة الزاد ، شقت نطاقها الذي
كانت تشد به وسطها ، وربطت

بأحد الشقين الحقيقية فلقت بذات
النطاقين .

أما «عامر بن فهيرة» فكانت
مهمته أن يرعى الأغنام بالقرب من
الغار ، فإذا ما حلّ الظلام ذهب
إلى الغار ؛ ليزود النبي ﷺ و«أبابكر» باللين ، ويسير بأغنامه
على آثار أقدام «عبدالله بن أبي
بكر» حتى يحوها ، فلا يفطن أحد
إلى مكانهم .

جن جنون «قريش» حين علمت
أن النبي ﷺ أفلت من قبضتها ،
وأن النائم في الفراش لم يكن سوى
«علي بن أبي طالب» ، فأخذت



[يس : ٩]

قصد النبي ﷺ بيت «أبي بكر»
الذي كان في انتظاره ومعه
الرواحل ، والزاد ، وكل ما يلزم
الرحلة المباركة ، وكان دليلهم في
رحلتهم «عبدالله بن أريقط» .

تبحث عن «محمد» في كل مكان ، وبعد أن أعياهم البحث في طريق «يثرب» ؛ عادوا إلى الجنوب ، ووصلت طلائع بحشهم إلى باب الغار ، ففزع «أبوبكر» ، حتى إنه بكى من شدة خوفه على حياة النبي ﷺ ، فسأله : «ما يبيك يا أبا بكر؟» فقال : يارسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فقال له الرسول ﷺ مطمئناً : «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما!».

وقد سجل القرآن الكريم هذا المشهد ، فقال تعالى :

﴿إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة : ٤٠]



* استئناف الرحلة :

ظل النبي ﷺ ، وصاحبه في الغار ثلاثة أيام ، حتى هدأت «قريش» ، وتعبت من البحث دون جدوى ، بعد أن كانت قد رصدت جائزة كبرى قدرها مائة من الإبل لمن يأتيها بمحمد حياً أو ميتاً ، لكن الله - سبحانه - عصمه من ذلك أيضاً ثم استأنف الرسول رحلته المباركة في غرة ربيع الأول ، وأخذ دليلهما طريقاً غير طريق القوافل المعروف ، لئلا يستدل عليهم أحد . وكانت الرحلة شاقة واكتنفها كثير من المخاطر ، من ذلك أن

«سراقة بن مالك الجشمي» علم أن النبي ﷺ و«أبا بكر» سلكا ذلك الطريق ، فأراد اللحاق بهما ، والقبض عليهما ، ليفوز بالجائزة ، فلما اقترب منهما غاصت أقدام حصانه في الرمال ، وعجز عن النهوض ، فدهش «سراقة» ، فلم يعهد من حصانه هذا من قبل ، وحاول أكثر من مرة اللحاق بهما ، ولكن تكرر فشله ، والنبي ﷺ ينظر إليه في إشفاق ، و«سراقة» يظن أن النبي متقم منه لامحالة ، فتوسل إليه أن يعفو عنه ، وعاهده على ألا يدل عليه أحداً ، فعفا عنه النبي ﷺ .

وكان أهل «يثرب» منذ أن علموا بقرب مقدم النبي ﷺ إليهم ينتظرونه بحب وشوق ولهفة إلى رؤيته ، وكانوا كل يوم يخرجون إلى مشارف

المدينة ، يلتمسون وصوله ، فما إن وقعت عليه عيونهم حتى كادوا يطيطون من الفرح ، وهتفوا مرحيين منشدين :

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ
وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا إِلَهُ دَاعٍ
أَيُّهَا الْمُبْعُوثُ فِينَا حِجَّتَ بِالْأَمْرِ لَطَاعٍ
حِجَّتْ شَرَفَ الْمَدِينَةِ مَرْحَبًا يَا حَبِيبَ دَاعٍ

وكان وصوله ﷺ إلى «يثرب» التي أصبحت عندئذ تسمى «مدينة الرسول» ، أو «المدينة المنورة» يوم الجمعة الموافق الثاني عشر من شهر ربيع الأول ؛ لأنه قضى أربعة أيام وفي «قُبَاء»^(٣) قبل دخوله



«يثرب» ، فقد وصلها يوم الاثنين الثامن من شهر ربيع الأول ، وبقي فيها إلى يوم الجمعة ، حيث صلى الجمعة في «المدينة» ، وصلى خلفه المهاجرون والأنصار في مشهد عظيم .

وحادث الهجرة هو أعظم حدث في التاريخ الإسلامي ، لذلك اتخذته الخليفة «عمر بن الخطاب» -رضي الله عنه - مبدءاً للتاريخ الإسلامي ؛ لأن الهجرة هي التي فتحت أمام الإسلام ذلك العالم الرحيب ، ومكنت النبي ﷺ من بناء دولته وتكوين جيشه الذي سيدافع عن دعوته ، وأتاحت له أن يعلم أصحابه أصول دينهم وعلوم السياسة والحرب

والسلام ، والإدارة والقيادة ، وهبأهم ليقودوا الدنيا كلها إلى الخير والعدل والحق ، وينشروا فيها الحرية والعزة والكرامة لكل الناس .

المسلمون في المدينة

* بناء الدولة الإسلامية :

أصبحت «المدينة» منذ أن وصل النبي ﷺ إليها منزل الوحي ، وممقل الإسلام ، ومركز إشعاعه

الذي أضاء العالم ، وشرع النبي فور وصوله في بناء مسجده الذي شارك في بنائه بنفسه مع أصحابه ، وكان بناؤه متواضعاً ؛ حيث بُني من الطين أو الطوب اللبن ، وكان سقفه من جريد النخل ، وأعمدته من جذوعه ، وفرشه الحصى ، كما كان مربع الشكل ، طول ضلعه نحو مائة ذراع .





الدين ، ومن ثم كان لابد من تحديد وضعهم في الدولة الجديدة بنصوص صريحة ، يُرجع إليها عند الضرورة .

ونص المعاهدة ، كما رواها «ابن إسحاق» :

«بسم الله الرحمن الرحيم :
هذا كتاب من محمد النبي ﷺ
بين المؤمنين والمسلمين ، من
قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق
بهم ، وجاهد معهم ، أنهم أمة
واحدة من دون الناس»

وهذا إعلان صريح للأساس العقدي للدولة الجديدة ، وباب الانتساب إليها هو الإيمان بالله ورسوله ، وعلى هذا الأساس تمارس الدولة سياستها وسلطانها العليا في الداخل والخارج . وجاء في المعاهدة ؛ وهو في غاية الأهمية .

«وأنه من تبعنا من يهود ،
فإن له النصر والأسوة غير
مظلومين ، ولا متناصر عليهم ،
وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ،
ماداموا محاربين ، وأن يهود بني
عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود
دينهم ، وللمسلمين دينهم ..
وأن لليهود بني الحارث مثل
ما لليهود بني عوف ، ..»

وأخذت الوثيقة تعدد سائر المجموعات اليهودية في «المدينة» ،

بين قلوبهم جميعاً ، فأصبحت عروة الإيمان فوق كل أسباب الصلات البشرية ، وأصبح النسب الإسلامي مقدماً على سائر الأنساب .

* معاهدة المدينة :

كانت الوثيقة الخالدة التي كتبها الرسول ﷺ مع اليهود الأساس الثالث لدولة الرسول في «المدينة» ، فبعد أن اطمأن على قوة جبهة المسلمين وسلامتهم ، التفت إلى «المدينة» ، فوضع لها نظاماً عاماً ثابتاً يحدد العلاقات والحقوق والواجبات بين سكانها جميعاً ؛ مسلمين وغير مسلمين ، فاليهود يقيمون في «المدينة» منذ زمن طويل ، وكانوا من قبل يقتسمون الزعامة مع الأوس والخزرج ، وهؤلاء آمنوا بالله ورسوله ، على حين بقي اليهود على دينهم ولم يؤمنوا ، ولم يجبرهم الرسول على اعتناق الإسلام ؛ إذ لا إكراه في

وهذا المسجد المتواضع البناء كان ذا شأن عظيم في تاريخ الإسلام ، فلم تقتصر وظيفته على أداء الصلوات فيه ، بل كان مدرسة تخرج فيها الرعيل الأول من المسلمين ، حملة لواء الإسلام ودعائه ، مكاناً تُعقد فيه الجلسات لمناقشة الأمور العامة التي تتصل بحياة المسلمين ودينهم ودولتهم . وفيه استقبل الرسول ﷺ وفود القبائل وسفراء الملوك والأمراء .

* الإخاء بين المهاجرين والأنصار :

وهو الأساس الثاني الذي أقام الرسول ﷺ عليه دولته ، ذلك أن «المدينة» فتحت صدرها الرحيب للمهاجرين ، واستقبلهم الأنصار بحفاوة لا نظير لها في التاريخ ، فما نزل مهاجر على أنصار إلا بقرعة ، لتنافس الأنصار وتزاحمهم على استضافة المهاجرين ، فأخى الرسول ﷺ بين الفريقين إخاءً ربط

حكومة الرسول

كان النبي ﷺ أول رئيس للدولة الإسلامية ، كما نصت على ذلك المعاهدة ، وقد قام النبي ﷺ بهذه المهمة طوال حياته ، فهو الذي يقضي في الحقوق المدنية والجنائية كافة ، وينفذ القضاء ، ويقيم الحدود ، ويجبي الأموال من مواضعها الشرعية ، ويوزعها في مصارفها الشرعية ، ويعلن الحرب ، ويعقد معاهدات الصلح ، ويخاطب رؤساء الدول ، ويستقبل سفراءهم ، ويولي الولاية على الأماكن البعيدة عن «المدينة» .

وهو في ذلك كله مؤيد من الله - تعالى - فإذا نزلت الحادثة بالأمة ، ولم يكن نزل في شأنها وحى من الله ، اجتهد النبي ﷺ رأيه وشاور أصحابه من أهل العلم والرأي ، وكانوا تارة يجمعون على رأي فيعمل به ، وتارة يختلفون فيعمل برأي بعضهم ، ويترك رأي البعض الآخر ، مجتهداً في ترجيح رأي على رأي .

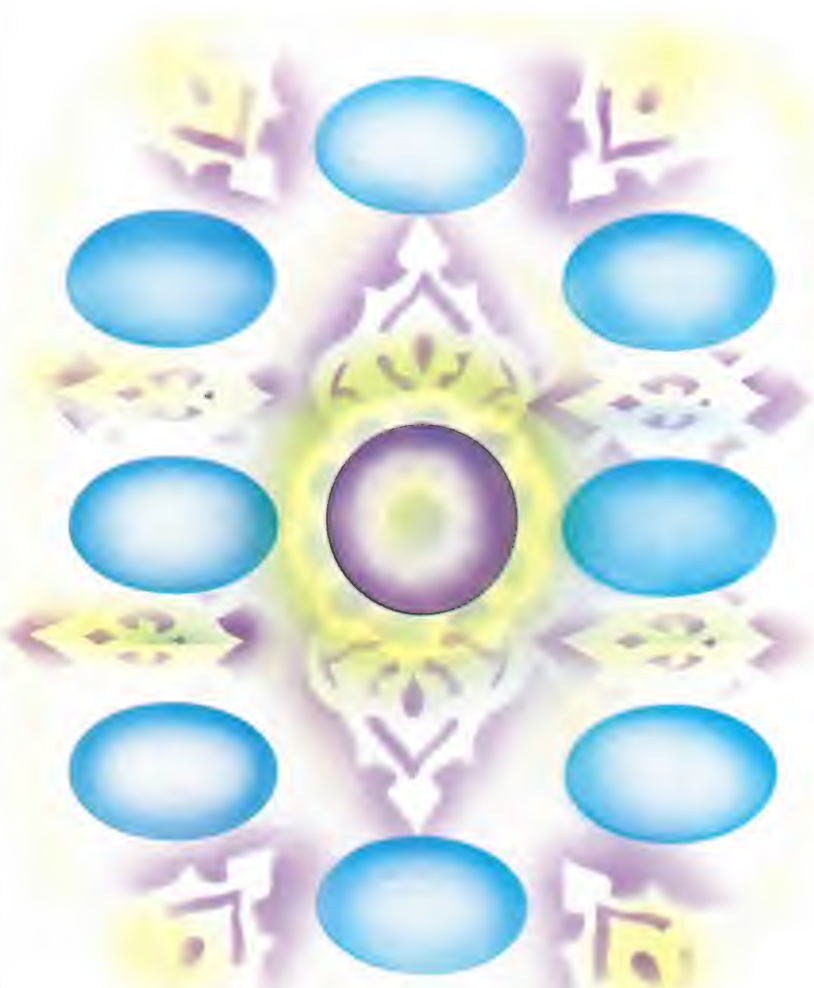
ثم أضافت شيئاً مهماً آخر ، حيث نصت :

«وأنه لا يخرج أحد منهم - من «المدينة» - إلا بإذن محمد» .

وهذا ليس تقييداً لحريتهم ، وإنما هو إجراء وقائي اقتضته ظروف الدولة الناشئة ؛ خوفاً من عمليات التجسس ، ونقل أخبار الدولة إلى أعدائها ، وبخاصة أنها تعتبر في حالة حرب مع «قريش» ، التي أجبرت المسلمين على ترك أوطانهم وديارهم وأموالهم .

وهذه المعاهدة كانت مهمة وأساسية في إعلان ميلاد دولة المسلمين بقيادة النبي ﷺ ، باعتراف جميع أطرافها بهذه القيادة ، كما يفهم من عبارة النص الآتي : « وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى «محمد» رسول الله ﷺ ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره» .

وعلى هذه الأسس الثلاثة السابقة قامت الدول الإسلامية في «المدينة» ، وكان في قيامها فتح جديد في الحياة السياسية ؛ إذ قررت حرية الاعتقاد والرأي ، وحرمة «المدينة» ، وحرمة الحياة ، وحرمة المال ، وحددت أعداء الدولة في صراحة ووضوح ، فمنعت إجارة «قريش» ومن نصرها .



ولما كانت أعباء الدولة كثيرة ، وفي الوقت نفسه يقوم بمهمة تبليغ الرسالة ، وهى مهمة ثقيلة ، فقد احتاج إلى معاونة أصحابه فى إدارة الدولة ، ومنهم تشكّلت حكومته واختص بعضهم بملازمته ، مثل «أبى بكر الصديق» ، و«عمر بن الخطاب» ، فأطلق عليهم «وزراء الرسول» ، وكان له «صاحب سر» ، أشبه ما يكون بالسكرتير الخاص ، إن صح هذا التعبير ، هو «حذيفة ابن اليمان» ، و«صاحب شرطة» هو «قيس بن سعد بن عباد» .

وكان له عدد من الخراس ، منهم : «سعد بن زيد الأنصارى» ، و«الزبير بن العوام» .

وكان له عدد من الحجاب الذين يستأذنون للناس فى الدخول عليه ، منهم : «أنس بن مالك» .

وكان له خاتم لختم الرسائل والمعاهدات ، يحمله اثنان هما : «حنظلة بن الربيع بن صيفى» ، و«الحارث بن عوف المرمى» .

واختص بعض الصحابة باستقبال الوفود التى تأتى لمقابلة الرسول ﷺ ، فيعلمونهم كيف يحيونه ، وينزلونهم فى بيت الضيافة الذى كان من السعة بحيث اتسع لبنى قريظة ، وكانوا زهاء ستمائة رجل أثناء انتظارهم للمحاكمة بعد خيانتهم فى غزوة «الأحزاب» .

وكان للرسول عدد من الكتاب

تجاوز الأربعين كاتباً ، منهم «أبو بكر الصديق» ، و«عمر بن الخطاب» ، و«عثمان بن عفان» ، و«على بن أبى طالب» ، و«الزبير ابن العوام» و«خالد» و«إيان» ابنا «سعيد بن العاص» ، وغيرهم ، واختص بعض هؤلاء بكتابة الوحى ، وبعضهم الآخر بالكتابة فى الشئون العامة للدولة .

وكان له عدد كبير من السفراء يرسلهم فى مهام إلى الملوك والرؤساء وزعماء القبائل ، وحرص الرسول على تعليم بعضهم اللغات الأجنبية ، إذ كانت تأتية مراسلات بتلك اللغات ، ومن هؤلاء «زيد بن ثابت الأنصارى» ، وكان يجيد الفارسية والعبرية ، وبعضهم كان

يعرف إلى جانب لغته العربية خمس لغات هى الفارسية والعبرية واليونانية والسريانية والحبشية .

وامتلك النبى ﷺ جهازاً إعلامياً قوامه الشعراء ، مثل : «حسان بن ثابت» ، و«عبدالله بن رواحة» ، و«كعب بن مالك» ، وكانوا يردون على شعراء المشركين حين كانوا يهاجمون النبى ﷺ ويهجونه .

وللنبى ﷺ جهاز دقيق لجمع المعلومات عن الأعداء ، وهو ما يقابل الآن جهاز المخابرات فى الدول الحديثة ، وكان جهازاً فعالاً ، ومن رجاله : «بسيمة بن عمرو الجهنى» ، و«طلحة بن عبيد الله» ، و«سعيد بن زيد» ، و«عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى» .

مشروعية القتال فى الإسلام

تقطع آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ ، وتصرفاته العملية بأن السلام هو الأصل والقاعدة الأساسية فى علاقات المسلمين بغيرهم من الأمم ، وأن الحرب هى الاستثناء ، فالجهد فى الإسلام ليست غاية ، وإنما هى وسيلة لتحقيق السلام ،

فإذا مال أعداء المسلمين إلى السلم وعزفوا عن الحرب ، فعلى المسلمين أن يستجيبوا لهم فوراً ؛ لقوله تعالى :

﴿ فَإِنْ عَزَلُواكُمْ فَلَمْ يَغْتَابُواكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾

[النساء : من ٩٠]

[الأفعال : من ٦١] وتنحصر مسوغات الحرب فى الإسلام أو أسبابها المشروعة فى ثلاث حالات هى :

- الدفاع عن النفس :

وهو عمل مشروع ، أقرته الشرائع السماوية كافة ، وكفلته القوانين الوضعية ، وحددته الآية السابق ذكرها :

﴿ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُوكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

[البقرة : ١٩٠]

- والدفاع عن حرية نشر العقيدة :

لأن العقيدة ذاتها لا تحتاج إلى قوة لنشرها إذا خلت الطريق أمامها من العوائق ، ولم يحاربها الطغاة ، وتركوها تشق طريقها إلى قلوب الناس فى حرية وأمان وفى هذا يقول الله تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾

[الأفعال : من ٣٩]

- الدفاع عن المظلومين :

وهذا واجب إنسانى على المسلمين ، فمن أهداف الإسلام نصرة المظلومين ودفع الظلم عنهم ، يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾

[النساء : من ٧٥]

ولم يأذن الله - تعالى - للمسلمين فى القتال ، إلا بعد أن تعرضوا للظلم ، وتحملوا شتى ألوان الاضطهاد والتعذيب ،

وطُردوا من بلدهم ، وأخرجوا من ديارهم ، وصودرت أموالهم وعندئذ كان لابد من الدفاع ، وجاء الإذن به من السماء فى قوله تعالى :

﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾

[الحج : ٣٩ - ٤٠]

* آداب الحرب فى الإسلام :

هى مجموعة القواعد والمبادئ والتقاليد العسكرية ، التى أرساها الإسلام ، وطبقها النبى ﷺ بنفسه ، وكانت تعليماته ووصاياه لقواده العسكريين ، تدور فى نطاقها .

فيحتم الإسلام على المسلمين الاعتناء بجرحى أعدائهم ومداوتهم وإطعامهم (٤) ، ويحرم الإجهاز عليهم أو إيذائهم بأى شكل من أشكال الإيذاء .

كما يفرض على المسلمين تجنب المذبذبات شرور الحرب وأخطارها ، فالأطفال وكبار السن ، والنساء

والمرضى ، بل الفلاحون فى حرثهم والرهبان فى معابدهم ، كل أولئك معصومون بحصانة الشريعة من أخطار الحرب .

والإسلام لا يحرص على سلامة أرواح غير المقاتلين من الأعداء فحسب ، بل يوصى المسلمين المقاتلين بعدم التعرض للأهداف المدنية ، وينهاهم عن التدمير ؛ لأن الإسلام إنما جاء ليبنى الحياة ويعمرها ، لا ليدمرها ويهدمها .

وكان الرسول ﷺ نفسه المثل الأعلى فى الالتزام بهذه المبادئ والآداب فى ميادين القتال ، فروى «أبو ثعلبة الخشنى» رضى الله عنه :

«إن ناساً من اليهود يوم خيبر جاءوا إلى رسول الله ﷺ بعد تمام العهد ، فقالوا : إن حظائر لنا وقع فيها أصحابك ، فأخذوا منها بقلاً وثوماً ، فأمر رسول الله ﷺ «عبد الرحمن بن عوف» - رضى الله عنه - فنادى فى الناس : إن رسول الله يقول لكم : لا أحل لكم شيئاً من أموال المعاهدين إلا بحق» .



غزوات الرسول ﷺ

لم يكن أمام النبي ﷺ بد من اللجوء إلى القوة العسكرية إزاء الغطرسة القرشية واضطهاد المسلمين، وإخراجهم من ديارهم قسراً، وملاحقتهم بالأذى وهم في مهاجرهم في «المدينة»، بالإضافة إلى مؤامرات اليهود وغدرهم وخياناتهم.

من أجل ذلك كله أعد الرسول ﷺ جيشاً قويا من المجاهدين في سبيل الله، وقاد بنفسه سبعا وعشرين غزوة، قاتل في تسع منها، هي: «بدر»، و«أحد»، و«الأحزاب»، و«بنو قريظة»، و«بنو المصطلق»، و«خير»، و«فتح مكة»، و«حنين»، و«الطائف»، وأصاب بعض أصحابه في قيادة سبع وأربعين حملة عسكرية. وعلى الرغم من هذا العدد الكبير من الغزوات والحملات فإن عدد الضحايا فيها كلها من الفريقين كان قليلا جدا، لا يتجاوز أربعمئة قتيل، وكان شهداء المسلمين في الإسلام، وهي:

١- غزوة بدر الكبرى

وقعت هذه الغزوة الخالدة في السابع عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية من الهجرة عند بئر بين «مكة» و«المدينة»، وقد سمى الله - تعالى - يومها «يوم الفرقان»؛ لأنه فرق بين الحق والباطل، وأعلى كلمة الإسلام.

وسببها أن قافلة تجارية لقريش، كانت قادمة من «الشام» إلى «مكة»، فأمر النبي ﷺ أصحابه بالتعرض لها والاستيلاء عليها؛ تعويضاً لهم عن أموالهم التي استولت «قريش» عليها في «مكة»، وهذا حق وعدل، ولم يكن في وسع الرسول ﷺ أن يترك «قريشاً» حرة طليقة، تجوب الطرق، وتتجر وتريح، وتعيش أمنة مطمئنة، وهي التي آذته وعذبت أصحابه، وتآمرت على حياته، وأرادت قتله، فلا بد من التضيق عليها، وتهديدها في تجارتها التي هي رزقها ومصدر قوتها؛ لتراجع نفسها، وتقتنع بأن مواصلة العداء معه ليس في مصلحتها، ولم يقصد الرسول ﷺ بهذا التصرف إهلاك «قريش» وتدميرها، لأنه جاء لإحيائهم وإسعادهم. وعندما وصل النبي ﷺ بجيشه إلى المكان الذي دارت فيه المعركة علم أن القافلة أفلتت ونجت، بعد أن نجح قائدها «أبو سفيان بن حرب» في اتخاذ طريق الساحل بعيداً عن طريق القوافل المعتاد، حين علم بخروج المسلمين للاستيلاء عليها، وكان قبل أن يفلت بقافلته قد أرسل سريعا إلى «قريش» يستنفرها للخروج لاستنقاذ أموالها التي توشك أن تقع في أيدي العرب، فيها بؤسهم أبد الدهر.



موقعة بدر

١٧ من رمضان سنة ٢هـ = ١٥ من مارس سنة ٦٢٤م

١ - مجيء المسلمين إلى سهل بدر من خيف أم العلاء والمعرضة.

٢ - هنا عسكر المسلمون عندما وصلوا قرب سهل بدر.

٣ - ليلة المعركة أرسل الرسول بعض رجاله فاستولوا على بئير الماء.

٤ - عريش الرسول ﷺ ومنه أدار المعركة.

٥ - معسكر المسلمين داخل السهل.

٦ - مجيء المشركين إلى سهل بدر من مكة المكرمة.

٧ - هنا عسكر المشركون عند وصولهم قرب سهل بدر.

٨ - معسكر المشركين داخل السهل.

٩ - هنا دارت معركة بدر.

١٠ - هذا السهم يشير إلى الأعراب الذين أحاطوا بالسهل ليشاهدوا المعركة.

* المواجهة العسكرية :

عندما علم المسلمون بإفلات القافلة ، رأى بعضهم العودة إلى «المدينة» ، لأن كثيراً ممن خرجوا لم يكن في حسابهم أنهم خرجوا لقتال وأن حرباً ستقع ، وإنما خرجوا للاستيلاء على القافلة ، فكرهوا القتال .

لكن الرسول ﷺ كان يعلم أن الرجوع إلى «المدينة» ستفسره «قريش» على أنه جبن وضعف عن لقاءها ومواجهتها ، وسوف تضيع ذلك في أوسع نطاق ممكن من شبه الجزيرة العربية ، وفي هذا ضرر بالغ بالدولة الإسلامية ودعوتها ، فتصرف الرسول ﷺ بحكمة بالغة وبعد نظر ، واستشار كبار أصحابه فيما يصنعون ، فتحدث «أبو بكر الصديق» و«عمر بن الخطاب» وغيرهما فأحسنوا الكلام ، وأبدوا استعداداً للتضحية والجهد في سبيل الله .

سمع الرسول ﷺ كلامهم فسعد به وسراً ، لكنه لا يزال في حاجة إلى معرفة رأى الأنصار في وضوح وجلاء ، لأن بيعتهم معه كانت تنص على الدفاع عنه داخل «المدينة» لا خارجها ، فلما كرر قوله : «أشيروا على أيها الناس» ، قال له : «سعد بن معاذ» وغيره من زعماء الأنصار : «لعلك تقصدنا يا رسول الله» ، قال : «نعم» . قالوا : «يا رسول الله ،

آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض بنا يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله» .

اطمأن الرسول ﷺ لموقف أصحابه وسلامة جبهتهم ، وقوة ترابطهم ، وبدأ يُعد للمعركة الأولى في تاريخ الإسلام ، وأعد له المسلمون عريشاً (مقر قيادة) يدير منه المعركة .

وعرف الرسول ﷺ عدد أعدائه وقوتهم من عيونه ومخابراته العسكرية فكانوا نحو ألف رجل مدججين بالسلاح ، فيهم عدد كبير من الفرسان ، في حين كان عدد المسلمين نحو ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، فيهم فرسان فقط .

وبدأت المعركة صبيحة اليوم السابع عشر من شهر رمضان سنة (٢هـ) بالمبارزة ، حيث خرج ثلاثة

من صفوف المشركين ، هم «عتبة ابن ربيعة» ، و«شعبة بن ربيعة» ، و«الوليد بن عتبة» ، يطلبون المبارزة ، فأمر النبي ﷺ عمه «حمزة» ، وابني عمه «علي بن أبي طالب» ، و«عبيدة بن الحارث» بالخروج إليهم ، وهذا تصرف له مغزاه من القائد الأعلى «محمد» رسول الله ﷺ ، حيث بدأ المعركة بأقرب الناس إليه ، فضرب المثل في التضحية والفداء لدين الله ، واستطاع الثلاثة المسلمون القضاء على الثلاثة المشركين من أعدائهم ، وتركوهم صرعى في ميدان المعركة ، ثم احتدمت الحرب ، وتلاحم الناس ، وحمل الوطيس ، والرسول في عريشه يدعو الله سبحانه وتعالى ويستنزل نصره الذي وعده به ، فيقول : «اللهم نصرك الذي وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من المسلمين فلن تعبد على وجه الأرض ، يامولاي» ، استجاب الله لدعاء نبيه ، وانجلت المعركة عن نصر ساحق للمسلمين ، وهزيمة ماحقة للمشركين الذين قُتل منهم سبعون ، وأسِر مثلهم ، وفر الباقون ،

وامتلأت أيدي المسلمين من غنائمهم التي تركوها ، واستشهد من المسلمين أربعة عشر شهيداً ، وتحقق وعد الله ، فنصر القلة القليلة المؤمنة ، على الكثرة المشركة المغترسة .

* الغنائم والأسرى :

بينما كان حزن «قريش» طاعياً على هزيمتها ورجالها الذين فقدتهم في المعركة بين قتيل وأسير ، كانت فرحة المسلمين عظيمة لهذا النصر المؤزر ، وعادوا إلى مدينتهم يتقدمهم رسول الله ﷺ ، يحملون الغنائم ، ويسوقون الأسرى المقيدون بالأغلال ، ومع ذلك فقد أمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يحسنوا معاملة الأسرى وإطعامهم .

أما الغنائم فقد أنزل الله على رسوله حكم التصرف فيها في سورة «الأنفال» ، التي نزلت بشأن هذه المعركة ، فقضى عز وجل بأن تقسم الغنائم خمسة أقسام ، خمس للرسول ، يتصرف فيه كيف يشاء في الأمور التي حددتها الآية

الكريمة ، في حين توزع الأربعة الأخماس على المجاهدين ، للراجل سهم ، وللفراس سهمان .

أما الأسرى ، فقد استشار النبي ﷺ فيهم أصحابه ، فمنهم من أشار بقتلهم ؛ لأنهم عذبوا المسلمين وطردهم من ديارهم وعلى رأس هذا الفريق «عمر بن الخطاب» ، ومنهم من قال : يارسول الله هم أهلك وعشيرتك ، فاستبقهم وخذ منهم فداء ، تقوى به على قتال أعدائنا . وكان على رأس هذا الفريق «أبو بكر الصديق» ، فمال النبي ﷺ إلى رأى الأخير ، وقبل منهم الفداء ، وكان كريماً معهم ، فقد أطلق سراح الفقراء منهم بدون مال ، وطلب ممن يعرف القراءة والكتابة منهم أن يعلم عشرة من أطفال المسلمين ، ويكون هذا فداءً له ، وهذا تصرف رائع من الرسول ﷺ له دلالة عظيمة على عناية الإسلام بالتعليم ، فهذه أول حادثة من نوعها في تاريخ البشرية ، فلم يُعرف أن فاتحاً متصراً قبله صنع مثل هذا الصنيع .

* عوامل النصر في بدر :

أما عن أهم العوامل التي أدت إلى هذا النصر في أول معركة كبرى بين المسلمين والمشركين ، فهي :

- القيادة :

كان الرسول ﷺ نعم القائد ، فقد استعد جيداً للمعركة ، وأدارها بكفاءة عالية في ظل الإمكانيات

المتاحة ، وجعل أصحابه يبذلون طاقاتهم كلها في الدفاع عن دين الله ، فكان يستشيرهم في كل أمر ويتقبل آراءهم واقتراحاتهم ، ولا يتميز عنهم في أى شيء ، حتى إنه تناوب الركوب على بعير واحد مع «علي بن أبي طالب» ، و«مرثد ابن أبي مرثد الغنوى» .

وكان لهذه الأسوة الحسنة من رسول الله ﷺ أثرها الكبير في نفوس أصحابه ، حباً لله ولرسوله لا ينازعه شيء ، وطاعة للأمر مهما يعظم ، وسرعة في تنفيذه ، ودفاعاً عن دين الله ودعوة رسوله بكل ما يملكون .

- العقيدة الراسخة :

كان للإيمان والثقة بنصر الله أثر بالغ في النصر ، فلم يتهيبوا الحرب أبداً ، مع أنهم كانوا يعلمون أن قوة عدد المشركين ثلاثة أمثال قوتهم .

- المعنويات العالية :

تمتع المجاهدون المسلمون في «بدر» بمعنويات استمدوها من الإيمان بالله ، والثقة بنصره ، ومن عظمة القائد وحكمته في إدارة المعركة ، ولا شك أن المعنويات العالية تُعد من أهم عوامل النصر في كل الحروب ، فقد دلت التجارب أن قوة التسليح ، وكثرة العدد لا تجديان ما لم يتحل المقاتلون بمعنويات عالية .



٢ - غزوة أحد

وقعت هذه الغزوة في شهر شوال من العام الثالث للهجرة عند جبل «أحد» ؛ شمالي «المدينة المنورة» ، فقد جندت «قريش» ثلاثة آلاف من رجالها وحلفائها للانتقام من المسلمين ، والثأر لهزيمتها الساحقة في «بدر» التي جلبت في كل بيت من بيوت «مكة» مأتماً .

وعندما وصلت أخبار ذلك إلى رسول الله ﷺ ؛ جمع أصحابه على الفور ، واستشارهم في أفضل طريقة لمواجهة هذا الموقف ، فأشار عليه شيوخ «المدينة» أن يتحصنوا داخلها ، ويتركوا الأعداء خارجها لأن شوارع «المدينة» ضيقة ، ويمكن إغلاقها عليهم ، وقتالهم فيها بكل طريقة ممكنة حتى بالحجارة ويمكن أن يشترك النساء والأطفال في مقاومتهم ، وكان هذا رأى الكبار ورأى النبي ﷺ . أما الشباب فقد أخذهم الحماس ، وخشوا أن يتهمهم الأعداء بالجن ؛ ففضلوا الخروج لمواجهةهم في مكان مكشوف .

ولما رأى الرسول ﷺ أن الرأى الأخير هو رأى الأغلبية قام إلى بيته ولبس درعه وحمل سلاحه وخرج إليهم ، فأدركوا أنهم أخرجوه مكرهاً ، فقالوا له : يا رسول الله ، لقد استكرهناك وما كان لنا ذلك ، فافعل ما شئت ، فقال ﷺ : « ما كان لنبى لبس لأمته - عدة حربه - أن يتزعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه » .

جبل أحد



ودارت المعركة ، وكانت الغلبة للمسلمين في البداية ، لكنهم تعجلوا النصر ولم يصبروا ، وظنوا أن المعركة انتهت ، فالذين في الميدان تركوا القتال وبدءوا في جمع الغنائم ، والذين فوق الجبل خالفوا أوامر النبي ﷺ وأوامر قائدهم «عبدالله بن جبير» ، وتركوا مواقعهم ، ليشتركوا في جمع الغنائم .

انتهاز «خالد بن الوليد» هذه الفرصة ، وانقض بفرسانه من الخلف ، مستغلاً الثغرة التي حدثت بترك الرماة مواقعهم ، فحول بحركته العسكرية سير المعركة من نصر للمسلمين في أولها إلى هزيمة ، وارتبك المسلمون من هول المفاجأة ، حتى إن بعضهم أخذ يقتل بعضاً ، وزاد ارتباكهم عندما أشاع المشركون أنهم قتلوا الرسول ﷺ الذي كان قد سقط في حفرة ، وجرح وكسرت ربايعيته ، وانجلت المعركة عن هزيمة للمسلمين ، وسقوط واحد وسبعين شهيداً ، وكان ذلك درساً قاسياً ، أنزل الله بشأنه أكثر من ستين آية في سورة «آل عمران» ، وضح لهم أسباب ما حدث ، وأن الهزيمة إنما كانت لمخالفة أوامر الرسول ، والحرص على جمع الغنائم ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ الْمَلَكُ وَعْدُهُ إِذْ تُحْسِنُونَ بَأْذَنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْلُوكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[آل عمران : ١٥٢]

ثم واساهم وعفا عنهم ، وذكرهم

٣ - غزوة الأحزاب

أظهر يهود «بنى قينقاع» بعد غزوة «بدر» تصرفات بالغة السوء ، وأظهروا حزناً شديداً على هزيمة «قريش» ، وساء لهم انتصار المسلمين ، وكان ذلك خيانة ونقضاً للمعاهدة التي وقعها الرسول معهم ، كما أنهم أرسلوا وفدًا إلى «مكة» لمواساتها ، وهذا



يخالف ما اتفق عليه في معاهدة «المدينة» التي نصت في أحد بنودها على عدم إقامة أية علاقات مع «مكة» ، ثم أساءوا إلى المسلمين وانتهكوا حرمتهم ، كما أغلظوا القول لرسول الله ﷺ حين نصحهم

بالاستقامة والالتزام بنصوص المعاهدة ، وقالوا : «يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب - يقصدون «قريشًا» - فلو حاربناك لتعلمنا أنا نحن الناس» ،

ولم يجد الرسول ﷺ بدا إزاء تصرفاتهم هذه إلا أن يجلوهم عن «المدينة» ويتخلص من غدرهم وأذاهم، ثم أجلى الرسول بعد غزوة أحد يهود «بنى النضير» بعد أن دبروا مؤامرة لقتله، فحقد اليهود عليه، وألبوا «قريشاً» وحلفاءها لشن حرب شاملة ضد المسلمين، وذهب وفد منهم لهذه المهمة يزعمون «حيى بن أخطب» إلى «مكة»، ووعدوهم بمساعدتهم، وقالوا لهم إنهم اتفقوا مع يهود «بنى قريظة» - الذين كانوا لا يزالون يسكنون «المدينة» على الانضمام إليهم عندما يهاجمون المسلمين فاقتنعت «قريش» بذلك، ثم ذهبوا إلى قبائل «غطفان» و«بنى أسد»، وصنعوا معهم مثلما صنعوا مع «قريش»، ونجحت خطتهم

الخبيثة بأن تجمع جيش من عشرة آلاف مقاتل، من «قريش» وحلفائها، و«غطفان» و«بنى أسد» لمهاجمة «المدينة»، وكان ذلك في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة.

* حفر الخندق :

علم الرسول ﷺ بهذه الأخبار المفزعة، فجمع كبار الصحابة واستشارهم كيف يواجهون هذا الموقف، فأشاروا عليه بالتحصن داخل «المدينة»؛ لأنهم استفادوا من درس «أحد»، وأخذوا يعدون العدة لتحمل حصار طويل من الأعداء. وهنا جاءت فكرة رائعة من «سلمان الفارسي» - رضى الله عنه - وهى حفر خندق فى الجهة الشمالية الغربية من «المدينة»؛ لمنع اقتحام جيوش الأحزاب لها،

لأن بقية جهاتها الأخرى كانت محصنة بغابات من النخيل، يصعب على الخيول اقتحامها. وتم حفر الخندق فى نحو أسبوع، وعمل النبى ﷺ بنفسه مع المسلمين فى حفره، وبشرهم وهم فى هذا الموقف العصيب بفتح «الشام» و«العراق» و«اليمن».

جاءت قوات الأحزاب، وهى واثقة لا بالنصر على المسلمين فحسب، بل باستئصالهم، لكن المفاجأة أذهلتهم عندما رأوا الخندق يحول بينهم وبين اقتحام المدينة، وظلوا أمامه عاجزين، تأكل قلوبهم الحسرة، لأنهم لم يتعودوا مثل هذا الأسلوب فى القتال، ولما حاول واحد منهم اقتحام الخندق لقى حتفه فى الحال.



وعلى الرغم من أن الخندق قد حمى المسلمين من هجوم المشركين، فإن الكرب قد اشتد عليهم، وضاقوا بطول الحصار، وكانوا فى موقف عصيب بالغ الصعوبة، وصفه الله - تعالى - أدق وصف بقوله:

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

[الأحزاب: ١٠-١١]

اجتهد النبى ﷺ فى تفريج الكرب عن المسلمين، فاتصل بقبائل «غطفان» وعرض عليها ثلث ثمار «المدينة» على أن يعودوا إلى ديارهم ويتخلوا عن «قريش» فوافقوا، وعرض الرسول ﷺ هذا الأمر على الأنصار، فسألوه إن كان هذا أمراً من الله فليس لهم أن يخالفوه، أما إذا كان اجتهداً من أجلهم فلن يوافقوا عليه، فأعلمهم أنه اجتهد منه لمصلحتهم ولتفريق الأحزاب عنهم، فأبوا وعزموا على مواصلة الجهاد والدفاع عن بلدهم، فأوقف النبى ﷺ المفاوضات مع «غطفان» نزولاً على رأى أصحابه.

ثم لاحت فرصة عظيمة عندما عرض «نعيم بن مسعود»، وكان قد أسلم وقدم مع الأحزاب دون أن يعلموا - أن يقوم بدور فى

التخفيف عن المسلمين؛ فأمره الرسول ﷺ أن يفرق بينهم وبين «بنى قريظة»، الذين نقضوا عهدهم مع النبى ﷺ واتفقوا مع الأحزاب على الانضمام إليهم حين تبدأ الحرب.

وقد نجح «نعيم» فى مسعاه نجاحاً عظيماً، وزرع الشكوك فى قلوب الأحزاب و«بنى قريظة» تجاه بعضهم بعضاً، ثم أرسل الله ريحاً شديدة قلعت خيام المشركين، وكفأت قدورهم، وانقلب الموقف كله بفضل الله - تعالى - عليهم، وأدرك «أبو سفيان بن حرب» قائد الأحزاب ألا فائدة من البقاء، فأمرهم بالرحيل فرحلوا، وقد علق الرسول ﷺ على هذا الموقف بقوله: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا». أى أن قريشاً لن تستطيع مهاجمة «المدينة» مرة أخرى؛ لأن ميزان القوى أصبح يميل مع المسلمين.



* عقاب بنى قريظة :

لما انسحبت الأحزاب، ونزع المسلمون لباس الحرب جاء «جبريل» - عليه السلام - إلى رسول الله ﷺ، وقال: «يا محمد إن كنتم قد وضعتم سلاحكم، فما وضعت الملائكة سلاحها، إن الله يأمرك أن تخرج إلى «بنى قريظة»، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادى فى الناس:

«لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة»، وحاصروهم الرسول ﷺ بضعة وعشرين يوماً، حتى نزلوا على حكمه، وطلبوا أن يحكم فيهم «سعد بن معاذ» حليفهم، فحكم بقتل الرجال منهم؛ جزاء غدرهم وخيانتهم، وانضمامهم إلى الأعداء وقت الحرب، فلو نجحت خطة الأحزاب لقضى على الإسلام والمسلمين قضاءً مبرماً.

وحين قضى «سعد» بهذا الحكم، قال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله».

٤ - عمرة الحديبية

قرر النبي ﷺ، بعد هذه الحروب التي وقعت بينه وبين «قريش» أن يذهب هو وأصحابه إلى «مكة» لأداء العمرة في شهر ذي القعدة من العام السادس للهجرة، لكن «قريشاً» رفضت رفضاً حاسماً فيه غرور وغطرسة، مع علمها بأن الرسول إنما

جاء «مكة» معتمراً مسالماً غير محارب، وليس من حقها أن تمنعه من زيارة البيت الحرام، الذي جعله الله للناس جميعاً مثابة وأماناً، فعسكر الرسول ﷺ في «الحديبية» على مسافة قريبة من «مكة»، وجرت بينه وبينهم مفاوضات حرصاً منه على السلام وحقق الدماء، انتهت إلى عقد هدنة عُرفت بصلح الحديبية، وأهم شروطها ما يلي:

١ - وقف الحرب بين الفريقين لمدة عشر سنين، يأمن فيها الناس ويسافرون ويتقلون في أمان.

٢ - وأن يعود الرسول وأصحابه هذا العام بدون أداء العمرة، وكانوا نحواً من ألف وأربعمائة فرد، على أن يأتوا في العام التالي، وتخلي لهم «قريش» «مكة» ثلاثة أيام يؤدون مناسكهم خلالها ثم يعودون إلى «المدينة».

٣ - وأن من يأتي «مكة» مسلماً بدون إذن وليه إلى «المدينة» يردّه الرسول ﷺ إليهم أما من يأتي من المسلمين إلى «مكة» مرتداً، فإنها ليست مطالبة برده إلى «المدينة».

٤ - وأن من أراد من القبائل العربية أن ينضم إلى أحد طرفي المعاهدة، فله ذلك (فانضمت قبيلة «خزاعة» إلى النبي ﷺ، في حين

٥ - فتح خيبر



وهي قرية كبيرة تقع شمالي شرقي «المدينة المنورة» بنحو مائة وثمانين كيلوا متراً، يسكنها بعض اليهود الذين لم تبد منهم أية إساءة إلى المسلمين من البداية،

ولم يُسمع أن لهم ضلعاً في أية مؤامرة أو موقف من مواقف اليهود المخزية ضد الرسول ﷺ فاحترم الرسول موقفهم وحيادهم، غير أنهم تبدلوا وتغيرت مواقفهم. منذ أن نزل عندهم يهود «بنى قينقاع» و«بنى النضير»، فأفسدوهم وجعلوا بلدهم وكرّاً للتآمر على المسلمين والكيد لهم.

٦ - فتح مكة المكرمة

التزمت «قريش» بمعاهدة «الحديبية» لمدة عام وبعض العام، فقد ذهب الرسول ﷺ وأصحابه لأداء عمرة القضاء في العام السابع من الهجرة.

لكنها ما لبثت أن نقضت المعاهدة عندما أعانت قبيلة «بنى بكر» حليفها على قبيلة «خزاعة» حليفة رسول الله ﷺ فطلبت «خزاعة» من الرسول نصرتها طبقاً للمعاهدة التي بينها وبينه، فوعدهم بالنصر، وبدأ في الاستعداد لغزو «مكة».

شعر «أبو سفيان» زعيم «مكة» بالخطأ الفاحش الذي وقعوا فيه، فسافر إلى «المدينة» لمقابلة الرسول ﷺ ولتجديد المعاهدة، فلم يقبل الرسول اعتذاره.

وفي بداية الأسبوع الثاني من شهر رمضان من العام الثامن للهجرة توجه الرسول ﷺ على رأس جيش قوامه عشرة آلاف

جزيرة العرب؛ لتسلم قاعدة الإسلام الأساسية ومنطلقه إلى العالم من عدو ماكر، فبعد عودته من «الحديبية» بأقل من شهر، أي في المحرم من العام السابع للهجرة غزا «خيبر»، ودك حصونها، فاستسلمت، وكان النبي ﷺ كريماً ورحيماً مع أهلها، فلم يجبرهم على الدخول في الإسلام، ولم يطردهم من بلدهم، بل أبقاهم يزرعون أرضهم، ولهم نصف محاصيلها، وللمسلمين النصف الآخر.

ولما سمعت القرى اليهودية الأخرى المنتشرة في وادي القرى، مثل: «فدك»، و«تيماء» بما حدث لخيبر، أرسلت وفودها إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يعاملهم معاملة مع أهل «خيبر» فاستجاب لهم.



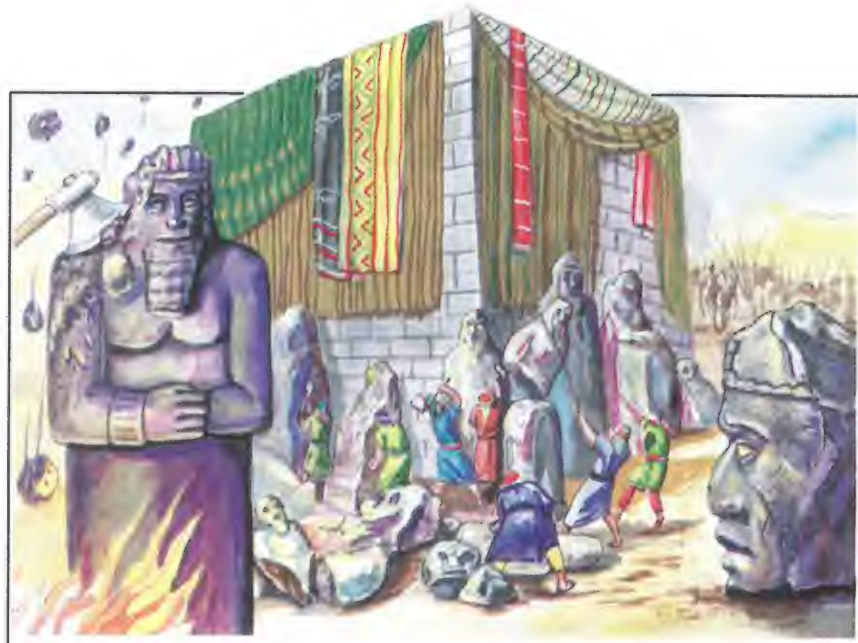
وأعطاه النبي ميزة كبيرة، بناء على اقتراح من «العباس بن عبدالمطلب»، ضمن الإعلان الذي أمره أن يبلغه لأهل «مكة»: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن».

حرص النبي ﷺ على دخول «مكة» بدون قتال، فهي بلد الله الحرام، وأحب بلاد الله إليه، وفيها أهله وذووه، فكانت أوامره صريحة لجيشه، ألا يقاتلوا إلا إذا قوتلوا، وبالفعل دخل الجيش «مكة» في العشرين من شهر رمضان دون قتال، إلا مناوشات بسيطة حدثت في الجهة التي دخلت منها الفرقة التي كان يقودها «خالد بن الوليد» عند جبل «خندمة» ففضى عليها «خالد»، وكان قد أسلم هو و«عمرو بن العاص» بعد

٧ - غزوة حنين والطائف

بعد فتح «مكة» بدأ الرسول ﷺ يرتب أمورها، فعين لها واليًا من قبله، هو «عتاب بن أسيد»، ومعلمًا يعلم أهلها شرائع الإسلام هو «معاذ بن جبل»،

ولكن بعد أقل من أسبوعين من ذلك الفتح العظيم وصلت إلى النبي ﷺ أخبار بأن قبائل «هوازن» و«ثقيف» قد جمعت جموعها في وادي «حنين» بين «مكة» و«الطائف» لمحاربتهم؛ لظنهم أن ذلك الفتح وعلو شأن الرسول ﷺ خطر عليهم، ولا شك أنهم كانوا في



﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾

وقال لهم: «ما تظنون أنى فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وبهذا ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في العفو والتسامح عند المقدرة، فلم تحمله نشوة النصر وزهو القدرة على الانتقام من أساء إليه، بل نسي كل ما فعلوه معه ومع أصحابه من ألوان العذاب.



ألفان من أهل «مكة»، واتجه به إلى وادي «حنين»، ففاجأهم جموع «هوازن» و«ثقيف» من مكائنها في الأودية والجبال، وكادت تهزمهم، وفر معظم المسلمين من هول المفاجأة، ولم يثبت مع النبي ﷺ إلا قلة قليلة من أهله وأصحابه، تقدر بنحو عشرة رجال، وصاح النبي ﷺ بالمسلمين «إلى أين أيها الناس؟ إلى أيها الناس، أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب»، وأمام ثبات النبي ﷺ وشجاعته عاد المسلمون وراءه، وتماسكوا من جديد، وحملوا على عدوهم حملة صادقة، فهزموهم هزيمة شديدة، وقتلوا منهم عددًا كبيرًا، وأسروا كذلك نحوًا من ستة آلاف، وغنموا غنائم شديدة.

وينبغي أن نشير إلى أن سبب الهزيمة التي كادت تحيق بالمسلمين في أول المعركة هو الاغترار بالكثرة، وكانوا اثني عشر ألفًا،

وقالوا: لن نهزم اليوم من قلة، فأراد الله أن يعلمهم أن الكثرة لا تكفى وحدها في حسم المعارك؛ إذ لا بد من عون الله تعالى، وقد أشار القرآن الكريم إلى سبب ما حدث لهم في أول المعركة، فقال تعالى:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾

[التوبة: ٢٥ - ٢٦]



٨ - حصار الطائف

بعد هزيمة «هوازن» و«ثقيف» في وادي «حنين». فرت فلولهم وتحصنت بالطائف فحاصروهم النبي ﷺ نحوًا من ثلاثة أسابيع، وكانت حصونهم قوية، وأخذوا في قذف المسلمين بالنبال فأذوهم، فاضطر النبي أن يتراجع بقواته بعيدًا عن مرمى النبال، ثم استشار أصحابه ماذا يفعل معهم، فقالوا له: «يارسول الله هم كضب في جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته فلن يضرك»، أي أنهم بعد فتح «مكة» وبعد هزيمتهم في وادي «حنين» لن يستطيعوا الصمود في وجهك، وهم مستسلمون لا محالة إن أطلت الحصار، وإن رفعت عنهم فسيقدمون عليك من تلقاء أنفسهم، فافتنع الرسول ﷺ بهذا الرأي، ورفع عنهم الحصار، ورفض أن يدعو عليهم عندما طلب منه ذلك بعض الصحابة، بل قال: «اللهم اهدِ ثقيفًا وأت بهم».

وبعد أقل من عام جاءت وفودهم إلى الرسول ﷺ في «المدينة»، وأعلنوا إسلامهم، في رمضان سنة ٩ هـ، وعين الرسول ﷺ «عثمان بن العاص الثقفي» واليًا عليهم.

٩- غزوة تبوك

قام النبي ﷺ بقيادة هذه الغزوة في شهر رجب سنة ٩ هـ ، وهي آخر غزوة غزاها ، وكان سببها أن أخباراً وصلت إليه من عيونته التي بثها لمراقبة تحركات الروم في الشمال ، أنهم يعدون العدة للهجوم عليه .



ديار قوم صالح عليه السلام

والحقيقة أن عدوان الروم كان قد تكرر كثيراً على المسلمين من قبل ، فاعتدى الروم على المسلمين وحاربوهم في غزوة «مؤتة» في جمادى الآخرة سنة ٨ هـ ، وكادوا يستأصلونهم ، لولا مهارة «خالد ابن الوليد» - رضى الله عنه - الذى انسحب من أمامهم وأنقذ جيش المسلمين من براثنهم .

وكان عدوانهم ذلك بدون سبب يدعو إليه لأن المسلمين لم يذهبوا لمحاربتهم ، وإنما جاءوا لتأديب القبائل القاطنة بين «الحجاز» و«الشام» ، التى دأبت على قطع الطريق على المسلمين ، ثم ارتكبت جرماً كبيراً حين قتلت «الحارث بن عمير» أحد سفراء النبي ﷺ الذين حملوا رسائله إلى الملوك والأمراء ، فأراد النبي ﷺ أن يؤدبهم بهذه الغزوة ، ليكفوا أذاهم عن المسلمين ، ولكن الروم تدخلوا بجيش كبير - أكثر من مائة ألف - بدون سبب .

أخذ رسول الله ﷺ يرصد تحركات الروم ، فلما وصلت إليه الأخبار بعزمهم على الهجوم عليه ؛ أعد جيشاً لصدده ، وكان عدده ثلاثين ألفاً ، وهو أكبر جيش قاده

النبي ﷺ وسُمي «جيش العسرة» ، لأن المسافة كانت بعيدة والجو صيف شديد الحرارة والناس يحبون المقام فى مزارعهم وبساتينهم لجنى الثمار ، والاستمتاع بالظل الوارف ، ولكن مادامت الدولة الإسلامية ودعوتها فى خطر ، فلا بد من التضحية والاستهانة بكل راحة ومتعة ، وقد ضحى أصحاب النبي ﷺ تضحيات كبيرة ، وأسهموا فى تجهيز الجيش وإعداده بأموالهم ، وبخاصة «عثمان بن عفان» الذى جهز نحو ثلث الجيش من ماله الخاص .

سار النبي ﷺ حتى وصل إلى «تبوك» ، فإذا به يعلم أن جيش الروم الذى كان يُعد يومئذ أقوى جيش فى الدنيا قد فرّ مذعوراً إلى داخل «الشام» ، فعسكر النبي ﷺ فى «تبوك» ثلاثة أسابيع ، رتب خلالها أوضاع المنطقة ، وأظهر هيبة الإسلام وضرب هيبة الروم ضربة قاصمة ، جعلت سكان الإمارات الصغيرة فى المنطقة الخاضعة لسيطرة الروم - كآيلة و«أدرج» و«الجرساء» - يهرعون إلى رسول الله ﷺ مذعنين ، وقالوا له : ماذا تريد منا ؟ فعرض عليهم الإسلام فرفضوا ، وقالوا : غير هذا ، قال :

«تدفعون الجزية وتؤمنكم على عقائدكم وأرواحكم وأموالكم» ؛ فقبلوا ، فأعطاهم بذلك معاهدات ، وكان تصرف النبي ﷺ مثلاً عالياً ودليلاً على تسامح الإسلام ، وأنه لا يُفرض على الناس بالقوة .

وبعد أن أنجز النبي ﷺ هذا الإنجاز الهائل ، وتجشم فى ذلك المتاعب والمشقات عاد إلى المدينة المنورة ؛ لاستقبال وفود القبائل العربية التى أتت من كل أنحاء شبه الجزيرة العربية تعلن إسلامها وخضوعها لله ولرسوله ، فجاءت عشرات بل مئات الوفود لهذا الغرض ، وسُمى العام التاسع للهجرة عام الوفود ، وصدق الله العظيم القتال :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾

[سورة النصر]

الإسلام هو الرسالة الخاتمة لرسالات الله - تعالى - إلى البشرية كلها ، فليس بعد القرآن الكريم كتاب سماوى ، وليس بعد محمد ﷺ رسول ؛ لقوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾

[الأحزاب : من ٤٠]

ولقول النبي ﷺ : «إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة.. فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» .

والإسلام هو دين الحق ؛ لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾

[آل عمران : من ١٩]

وهو الدين الذى دعا إليه الأنبياء جميعاً ؛ فقال - تعالى - على لسان «نوح» - عليه السلام - :



عالمية الرسالة الإسلامية

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[يونس : من ٧٢]

وقال على لسان إبراهيم - عليه السلام :

﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

[البقرة : من ١٣١]

وأوصى نبي الله «يعقوب» بنيه بقوله :

﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ

فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

[البقرة : من ١٣٢]

وقال «موسى» لقومه :

﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ

تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾

[يونس : من ٨٤]

وكل واحد من هؤلاء الرسل الكرام كان مُرسلاً إلى قومه فقط ، فرسالاتهم كانت محدودة الزمان والمكان والبيئة البشرية بنص القرآن الكريم .^(٥)

أما رسالة «محمد» ﷺ فعامية لكل الجنس البشرى ، قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ

بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾

[سبا : ٢٨]

وقال تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ

اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

[الأعراف : من ١٥٨]

وليس معنى عالمية الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان أن يفرض على الناس بالقوة ، إذ لا إكراه في الدين ، ولأن الأسلوب الذي أمر الله - تعالى - به في الدعوة إلى دينه هو :

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

[النحل : من ١٢٥]

والمعنى الحقيقي لعالمية الإسلام أنه رسالة مفتوحة للبشر كلهم ، دون تمايز أو تفرقة ، ودون قيود أو عوائق ، فهو ليس ديانة مقصورة على فئة بعينها ، كما يدعى اليهود - مثلاً - أن ديانتهم خاصة بهم وحدهم ، اختصاصهم الله بها دون غرهم من البشر ، بل الناس جميعاً في الإسلام سواء ، لافضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، فهم من أب واحد وأم واحدة ، وأكرمهم عند الله أتقاهم .

وكان من بين الصحابة مسلمون من غير العرب ، مثل «سلمان الفارسي» ، و«صهيب الرومي» ، و«بلال الحبشي» ، وكانت منزلتهم عند رسول الله تفوق منزلة كثير من الصحابة ، كما كان الصحابة أنفسهم يعاملونهم أكرم معاملة ، حتى إن «عمر بن الخطاب» يقول عن «بلال بن رباح الحبشي» : «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا» ، يقصد بلالا .

رسائل الرسول إلى ملوك العالم ورؤسائه

كان النبي ﷺ ينتظر الفرصة المواتية ، والوقت المناسب ؛ ليخرج بالدعوة الإسلامية من شبه الجزيرة العربية إلى النطاق العالمي ، وجاءت هذه الفرصة بعد «صلح الحديبية» ، الذي أَمِنَ به إلى جانب «قريش» أعدى أعدائه في الداخل يومئذ ، وقضى على خطر اليهود بفتح «خيبر» .

ومع بداية العام السابع من الهجرة ساد شبه الجزيرة العربية جو من الهدوء النسبي ، فبدأ النبي ﷺ في تبليغ دعوته وتوجيهها إلى أكبر عدد ممكن من ملوك العالم ورؤسائه وأمرائه ، فأعد عدداً من أصحابه الكرام ، ليكونوا سفراء بينه وبين الملوك والرؤساء وحملهم رسائله إليهم ، فأرسل «عبدالله بن حذافة السهمي» برسالة إلى «كسرى أبرويز الثاني» ملك الفرس ، و«دحية بن خليفة الكلبي» برسالة إلى «هرقل» الروم ، و«حاطب بن أبي بلتعة» برسالة إلى «المقوقس» حاكم «مصر» ، و«عمرو بن أمية الضمري» برسالة إلى «النجاشي» ملك «الحبشة» ، و«العلاء بن الحضرمي» برسالة إلى أمير «البحرين» ، و«عمرو بن العاص» برسالة إلى ملكي «عمان» ، كما أرسل إلى سائر أمراء العرب في «الشام» و«اليمن» .

وتعد هذه الرسائل نقطة تحول في تاريخ الإسلام من ناحية ، ونقطة البداية في علاقات الإسلام بالعالم الخارجي من ناحية أخرى ، فعلى أساسها وعلى ضوء ردود الأفعال عند من أرسلت إليهم من الملوك تشكلت علاقات المسلمين مع الأمم الأخرى في حالي الحرب والسلام .

وسنكتفي بإيراد نص رسالة النبي ﷺ إلى «هرقل» ، لأن الرسائل كلها تقريباً متشابهة في نصوصها ومضمونها ، فهي دعوة سلمية إلى الإسلام ، لم تتضمن أى تهديد أو تلويح باستخدام القوة ضد من يرفض الإسلام ، ونص الرسالة :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى .. أما بعد : فإنني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتلك الله أجرتك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم الاربسيين - رعايا هرقل - ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون» .

فماذا كان رد هرقل على هذه الرسالة السلمية ؟ وماذا كانت نتائجها ؟

ذكرت بعض المصادر التاريخية أن «هرقل» رد على رسالة النبي ﷺ رداً مهذباً بل إنه مال إلى الإسلام ، ولكن الروم لم يطاوعوه ، فاعتذر للنبي عن عدم قبول الإسلام بسبب رفضهم ، في حين لا تشير مطلقاً إلى ذلك غالبية المصادر الإسلامية ، كما أن تطور العلاقات بين المسلمين والروم في أواخر حياة النبي ﷺ وفي عهد خلفائه الراشدين يجعلنا نميل إلى أنه لم يرد ؛ لأن «هرقل» عندما وصلتته رسالة النبي ﷺ كان عائداً لتوه من حربه مع الفرس ، وقد انتصر عليهم انتصاراً ساحقاً ، ويبدو أنه كان معتداً بنفسه اعتداداً كبيراً ، مزهواً بما حققه من فوز رد به اعتبار دولته أمام الفرس ، فخوراً بإعادة الصليب الأكبر الذي أخذه الفرس إلى بلادهم أثناء

غزوهم لفلسطين قبل سنوات ، فلما جاءت رسالة النبي ﷺ إليه وهو في هذه الحالة النفسية المزهوة لم يحفل بها ولم يقدر أمرها التقدير الصحيح .

ويؤكد ذلك الرأي أن تطور العلاقات بين المسلمين والروم تصاعد إلى الصدام المسلح ، فاعتدى الروم على المسلمين في غزوة مؤتة سنة (٦٢٨هـ) ، ثم حاولوا الاعتداء مرة أخرى سنة (٦٢٩هـ) مما جعل النبي ﷺ يخرج إليهم في غزوة «تبوك» ، ثم دارت رحى الحرب بين المسلمين والروم ؛ لأنهم تدخلوا في حركة الردة ، وحرصوا القبائل عليها وساعدوها ، ونجح المسلمون في فتح «الشام» و«مصر» وطردها الروم منها إلى الأبد ، ومن ثم لا يستطيع أحد أن يلوم المسلمين

؛ لأنهم حملوا السلاح دفاعاً عن أنفسهم ضد عدوان الروم المتكرر . أما علاقة المسلمين بالإمبراطورية الفارسية ، وهي يومئذ الدولة الكبرى الثانية في العالم ، فلم تكن بأحسن حال من علاقة المسلمين بالروم ، بل كان «كسرى أبرويز الثاني» ملك «فارس» أكثر غروراً وغطرسية من «هرقل» ، فلم تكد تصل إليه رسالة النبي ﷺ حتى استشاط غضباً وقام بتمزيقها ، مع أنها رسالة سلمية للإسلام لا تخرج في مضمونها عن رسالة النبي إلى «هرقل» ، فدعا عليه النبي ﷺ قائلاً : «مزق الله ملكه» ، ولم يكتف الإمبراطور المغرور بذلك ، بل أمر نائبه على حكم «اليمن» «بازان» أن يأتي له بالنبي مقيداً في الأغلال ، ليحاكمه على جراته وكتابته إليه يدعوه إلى الإسلام ،



فأبقاهم على إماراتهم ، وأرسل إلى كل إمارة معلمين من أصحابه يفقهونهم في الدين .

أما «المقوقس» حاكم «مصر» فلم يسلم ولكنه رد رداً مهذباً ، مصحوباً بكثير من الهدايا ، مع جارتين ، هما «مارية القبطية» التي أعتقها النبي ﷺ وتزوجها ، وأنجب له ابنه «إبراهيم» ، وأختها «سيرين» التي أهداها لشاعره «حسان بن ثابت» .

وأما «النجاشي» ملك «الحبشة» ، فقد استقبل مبعوث النبي ﷺ استقبالا حسناً ، ورد عليها برسالة مهذبة ، أعلن فيها إسلامه صريحاً واضحاً . وتوفي «النجاشي» في السنة التاسعة من الهجرة ، ولما علم النبي ﷺ بذلك صلى عليه صلاة الغائب ، وقد حفظ المسلمون للحبشة موقفها من المهاجرين إليها ، فظلت علاقاتهم بها حسنة على الدوام .



مقيداً في الأغلال ، ليحاكمه على جرائمه وكتابته إليه يدعوه إلى الإسلام ، فامتثل «بازان» وأرسل قوة من «اليمن» إلى «المدينة» لتنفيذ هذا الأمر ، وفي هذه الأثناء كان «كسرى أبرويز الثاني» قد قتل في ثورة قادها ضده ابنه «شَيرَوَيْه» ، استجابة لدعوة النبي ﷺ عليه .

فلما جاء رسل «بازان» أخبرهم النبي ﷺ ، بما حدث لكسرى ، واحترمهم وأكرم وفادتهم ، وحملهم رسالة إلى «بازان» حاكم «اليمن» ، يدعوه فيها إلى الإسلام ، فإن أسلم أقره الرسول ﷺ حاكماً على «اليمن» من قبله ، فشرح الله صدره للإسلام ، فأسلم وأقره النبي ﷺ على حكمها مع أنه فارسي ، وهذا دليل على سمو مبادئ الإسلام العادلة وأنه دين المساواة .

وقد تطورت العلاقات مع الفرس على طريق المواجهة ، كما حدث

حجة الوداع

كانت «حجة الوداع» في العام العاشر من الهجرة ، وسميت بذلك لأن النبي ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى بعدها بوقت قصير ، ولأن العبارات التي افتتح بها النبي ﷺ خطبته كانت تفيد بأنه لن يلقي أمته بعدها في الحج أبداً ، كما سميت هذه الحجة بحجة البلاغ ؛ لأن النبي ﷺ ذكر في نهاية الخطبة عبارات التبليغ لرسالته للناس .

والحج ركن من أركان الإسلام الخمسة فُرضَ على المسلمين في العام التاسع للهجرة ، فبعد عودته ﷺ من غزوة «تبوك» أرسل «أبا بكر الصديق» - رضي الله عنه - أميراً على الحج ، وقضى هو أكثر من عام مشغولاً باستقبال وفود

العرب التي توالى عليه من كل أنحاء شبه الجزيرة العربية ، تعلن بيعتها وإسلامها ، وكان النبي ﷺ يبعث مع كل وفد من يعلمهم أمور دينهم من الصحابة .

ولما اطمأن أن الإسلام قد انتشر في بلاد العرب ، وتجاوزها إلى ما حولها رغب أن يقوم بأداء فريضة الحج ، ويعلم المسلمين المناسك بطريقة عملية ، ويوصيهم خيراً ، ويلخص لهم في خطبه شرائع الإسلام وأهدافه .

فخرج من «المدينة» في ٢٥ من ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة ، وأحرم بالحج والعمرة من ذي الحليفة^(٦) ، وخلفه أكثر من مائة ألف من المسلمين ، وكان المشهد رائعاً ومهيئاً ، ينحني له

التاريخ إجلالاً وتقديراً ، فهذا هو ذا الرجل الذي بدأ دعوته وحده ، والعرب جميعهم يقفون ضده ، ويحاربونه بكل ما يملكون يلتفون حوله ، ويسرون خلفه ، ويقودهم في تواضع وبر ورحمة ومودة .

وقد خطب النبي ﷺ في هذه الجموع الكبيرة بعد الإحرام ، فوعظهم ، وعلمهم مناسك الحج ، وقال لهم : «خذوا عني مناسككم» . وسار ركب الحج النبوي إلى «مكة المكرمة» في يوم التروية - الثامن من ذي الحجة - وتوجه إلى «منى» ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وصبح يوم عرفة ، وبعد الصلاة توجه إلى عرفات في التاسع من ذي الحجة ، وهناك خطبهم «خطبة الوداع» ،



وهي خطبة طويلة ، بدأها النبي ﷺ بقوله : «أيها الناس ، اسمعوا قولي ، فإنني لا أدرى لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً ، أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم كحرمه يومكم هذا ، وكحرمه شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا العباس بن عبدالمطلب موضوع كله ، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب - ابن عم النبي ﷺ - وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل ، فهو أول ما أبداً به من دماء الجاهلية » .

ثم واصل خطبته مقررًا فيها قواعد الإسلام وشرائعه ، هادماً قواعد الشرك والجاهلية ، موضحاً المحرمات التي اتفقت جميع الشرائع السماوية على تحريمها ، وهي الدماء والأموال والأعراض ، ووضع

أمور الجاهلية كلها تحت قدميه ، وأوصاهم بالنساء خيراً ، وحذرهم من الفتن ، وختمها بتلك الكلمات المباركات ، فقال : «فاعقلوا أيها الناس قولي ، فإنني قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبداً ، أمراً بيناً ، كتاب الله وسنة نبيه » .

وبعد أداء بقية مناسك الحج ، عاد رسول الله ﷺ سعيداً مغتبطاً إلى مدينته ، ليستعد للقاء ربه راضياً مرضياً عنه من ربه الذي أرسله رحمة للعالمين ، ومن أمته التي بلغها رسالة ربه ، وأخرجها من الظلمات إلى النور .

شخصية الرسول

كانت أخلاق الرسول ﷺ وصفاته الشخصية من أهم العوامل التي ساعدت على تكوين المجتمع الإسلامي الأول تكويناً سليماً ، فقد كانت أخلاقه رخاءً وسماحة وصفاء ، وحسبه أن الله وصفه بقوله :

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

[القلم : ٤]

كما كانت أخلاقه من الأسباب التي جمعت الناس حوله ، لقوله تعالى :

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ

لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾

[آل عمران : ١٥٩]

وعُرف الرسول بأخلاقه السمحة قبل البعثة ، فلم يسجد لصنم قط ، واشتهر بين أهله وقومه بالصادق الأمين ، ولم يشترك فيما تعود شباب «قريش» أن يقوموا به من عبث ومجون ، ثم ازدادت أخلاقه

سموا بهدى الوحي ، وأصبح أعظم العظماء في كل شيء ، في الصدق والأمانة ، والوفاء والحياء ، والشجاعة والكرم ، والزهد ، والصبر على الشدائد ، ومواجهة أعباء الرسالة ، ومشكلات الحياة ، رحيماً في معاملة أصحابه ، عارفاً بأقدارهم ، عطوفاً على أهله وزوجاته .

وإذا كان الناس يقولون أن الرجل العظيم في الحياة العامة قلما يكون عظيماً في بيته ، فإن «محمداً» ﷺ كان أعظم العظماء في التاريخ البشري كله ، في الحياة العامة ، وأعظمهم في بيته الذي ضم تسع زوجات ، في وقت واحد ، من أعمار مختلفة ومن قبائل مختلفة ، بل ومن أجناس مختلفة ، فمنهن العربية واليهودية والمصرية ، فكان المثل الأعلى معهن في كل شيء ، وكلهن يقدرن شخصه وخلقه ، وقد عاش بعضهن بعد موته أكثر من نصف قرن ، وألستهن تلهج بذكره والثناء عليه ، فلم تشغله أعباء الرسالة وتكاليفها ، وتبعات الدولة ومسئولياتها عن القيام بواجباته نحوهن على أكمل وجه ، وكان يجد من الوقت ما يسمح له بملاطفتهن ، وإدخال السرور على قلوبهن .

وقد انبهر بأخلاق النبي ﷺ عدد من كتاب الغرب ، فلم

يسعهم إلا أن يقولوا كلمة الحق عنه ، من ذلك ما قاله «وليم موير» : «إن من صفات محمد الجديرة بالتنويه الرأفة والاحترام اللذين كان يعامل بهما أصحابه ، فإن التواضع وإنكار الذات والرأفة والأناة والسماحة تغلغلت في نفسه ، فأحبه كل من حوله ، ولم يكن الإصلاح أعسر ولا أبعد من لا منه عند ظهور محمد ، ولا نعلم نجاحاً تم كالذي تركه عند وفاته» .

ويقول الشاعر «لامارتين» : «إن محمداً هو أعظم رجل بجميع المقاييس التي وضعت لوزن العظمة الإنسانية ، فإن كان مقياس العظمة الإنسانية هو إصلاح شعب متدهور ، فمن ذا الذي يطاول محمداً في هذا المضمار . وإذا كان مقياس العظمة هو توحيد الإنسانية المفككة الأوصال ، فإن محمداً أجدر الناس بهذه العظمة ، لأنه جمع شمل العرب بعد تفكك شامل . وإذا كان مقياس العظمة هو إقامة حكم السماء في الأرض ، فمن ذا الذي ينافس محمداً الذي محا مظاهر الوثنية ، وثبت عبادة الله وقوانينه في عالم الوثنية والقوة» .

أما الدكتور «مايكل هارت» في كتابه «المائة الأوائل» فقد وضع النبي ﷺ على رأس القائمة ، مبرراً ذلك أمام القراء الغربيين الذين يكتب لهم في الأساس بأنه

«الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستوى الديني والديني ، ونشر الإسلام وهو من أعظم الديانات ، وأصبح قائداً سياسياً وعسكرياً ودنياً ، وبعد مرور القرون العديدة فإن أثره لا يزال متجدداً وقوياً» .

والحق أن جوانب العظمة والكمال الإنساني في شخصية الرسول لا يستطيع أحد أن يحصرها أو يحيط بها ، وستظل سيرته وأعماله وأخلاقه مجالا رحباً للبحث والدراسة ، والتأمل والافتاء .

مرض الرسول ﷺ ووفاته

بدأ النبي ﷺ يشعر بالمرض بعد عودته من حجة الوداع بنحو شهرين ، أي في أواخر شهر صفر من العام الحادي عشر للهجرة ، وكان يشكو من الصداع ، ويقول : «وارأساه» .

وكان النبي ﷺ في بداية مرضه يتحامل على نفسه ، ويخرج إلى الناس يصلي بهم إماماً ، فلما اشتد عليه المرض ولم يعد قادراً على الخروج ، أمر «أبا بكر الصديق» أن يصلي بهم إماماً ، وأصرَّ على ذلك ، ورفض أن يصلي بهم «عمر بن الخطاب» ، وفي ذلك إيماء إلى أفضلية «أبي بكر» - رضى الله عنه - على سائر الصحابة كلهم .





وفى صبيحة يوم الاثنين الموافق (١٢) من شهر ربيع الأول سنة (١١هـ) فاضت روح النبي ﷺ الطاهرة إلى بارئها ، فكان ذلك صدمة قاسية للمسلمين ، الذين روعتهم وفاة نبيهم إلى الحد الذي جعل بعضهم لا يصدق أن النبي توفى - من هول الصدمة - منهم «عمر بن الخطاب» الذي كان أكثرهم فزعاً وحزناً ، أما «أبو بكر الصديق» فلم يكن موجوداً لحظة وفاة النبي ﷺ بل كان في منزله بالسُّنح من ضواحي «المدينة» فلما بلغه الخبر المفجع جاء على الفور، فوجد الناس واجمين ، قد استبد بهم الحزن ، وعمتهم الحيرة ، وغشيتهم الكرب ، ووجد «عمر بن الخطاب» يخطب في الناس ويتهدد ويتوعد من يقول إن النبي قد مات ، فلم يكلمه ، وقصد بيت ابنته «عائشة» حيث جسد النبي ﷺ مسجى هناك ، فكشف الغطاء عن وجهه الشريف وتأكد من وفاته ، فقبله في جبينه ، وقال : «بأبي أنت وأمي ، طبت

حيا وميتاً يارسول الله» ، ثم خرج إلى الناس ، الذين كانوا ينتظرونه ، وقد تعلقت به آمالهم ، لعله يعلن أن النبي لم يميت ، ولكنه كان رجل الموقف العصيب ، فأعلن الحقيقة التي لا مفر من إعلانها للناس ، ليواجهوا الموقف بكل أحزانه وتبعاته ، فقال للناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه : «أما بعد ، فمن كان يعبدُ محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبدُ الله فإن الله حي لا يموت» ، ثم تلا قوله تعالى :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

[آل عمران : ١٤٤]

فقال «عمر بن الخطاب» حين سمع «أبا بكر» يتلو هذه الآية : «كأنني لم أسمعها من قبل» .

هذه هي الحقيقة التي أعلنها «الصديق» على الناس ، فالنبي بشر يخضع لقوانين الله في البشر من حيث الحياة والموت ، وقد قال الله له :

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾

[الزمر : ٣٠]

بدأ التفكير في تجهيز النبي ﷺ من غسل وتكفين ودفن ، فاختلفوا ، أين يدفن ، فقال لهم «أبو بكر الصديق» : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «مامات نبي إلا دفن حيث مات» . وشرعوا في غسله ، وكان الذين تولوا غسله هم أهل بيته : «علي ابن أبي طالب» ، وعمه «العباس ابن عبدالمطلب» ، وابنه «الفضل» ، واشترك معهم «أسامة بن زيد» ، و«شقران» مولى «أسامة» ، ولم يجردوه من قميصه أثناء غسله ، ثم كفنوه في ثلاثة أثواب ، وصلوا عليه فرادى ، الرجال أولاً ، ثم تلاهم النساء ، ثم الأطفال ، وفى يوم الثلاثاء التالى لوفاته وورى الجسد الطاهر فى التراب .

قيام الخلافة



أدرك الصحابة - رضوان الله عليهم - أهمية اختيار خليفة لرسول الله ﷺ بعد وفاته ، وضرورة أن يختاروا لدولتهم رئيساً يخلف النبي فى إدارة أمورهم ، فاجتمع الأنصار فى «سقيفة بنى ساعدة» ، التى كانت لهم مثل دار الندوة لقريش فى «مكة» ؛ لاختيار خليفة منهم ، طانين أنهم أحق الناس بذلك الأمر من غيرهم ،

فالمدينة بلدهم ، والدولة قامت على أرضهم ، فرشحوا «سعد بن عبادة الخزرجي» لهذا المنصب الجليل ، وفى أثناء ذلك جاء «عويم ابن ساعدة» ، و«معن بن عدى» ، وهما من الأنصار إلى «أبى بكر الصديق» و«عمر بن الخطاب» ، وأخبراهما بما يجرى فى السقيفة ، فاتجها معهما على الفور إليها ، وفى الطريق لقيا «أبا عبيدة بن الجراح» فذهب معهم ، ولما وصلوا إلى السقيفة حيث الأنصار مجتمعون ، و«سعد بن عبادة» يتكلم على الرغم من مرضه ، مبيناً أحقية الأنصار بالخلافة؛ أراد «عمر بن الخطاب» أن يتكلم ، لكن «أبا بكر» طلب منه أن ينتظر ، فامتلأ الأمر «أبى بكر» الذى تكلم ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وعلى نبيه :

«إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه ؛ ليعبدوا الله ويوحده ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى... فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواساة له.. فهم أول من عبد الله فى الأرض ، وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، لا ينازعهم إلا ظالم . وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم فى الدين ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام ، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لانفتاتون فى مشورة ، ولا تنقضى دونكم الأمور»

ثم قال : «ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش ، هم أوسط العرب نسباً وداراً ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين ، فبايعوا أيهما شئتم» يقصد «عمر» و«أبا عبيدة» ، ولكنهما رفضا أن يتقدما على «أبى بكر» ، وقالوا : «لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك ، أو يتولى هذا الأمر عليك» .

فقام الحاضرون فى السقيفة بمبايعة «أبى بكر» بيعة عرفت بالبيعة الخاصة ، لأن كثيراً من المسلمين لم يحضروها ، وبخاصة آل بيت النبي ﷺ الذين كانوا مشغولين فى

مراسم دفنه ، وتمت البيعة في جو من السكينة والإخاء والود ، بعد مشاورة ونقاش هادئ ورزين ، مما دل على إحساس عميق بالمسؤولية من كبار الصحابة ، وضرورة استمرارية الدولة ، وكرهيتهم أن يبيتوا ليلة واحدة بعد وفاة نبيهم بدون إمام يدير أمورهم ، ويواجه الموقف ، ويتخذ ما يلزم من قرارات ، وقدموا ذلك على تجهيز النبي ودفنه ﷺ .

* البيعة العامة :

وفي اليوم التالي بعد الانتهاء من دفن رسول الله ﷺ اجتمع المسلمون في مسجده وبايعوا «أبا بكر» بيعة عامة ، حضرها جمهور الصحابة ، وكان البيعة الأولى كانت بمثابة ترشيح ، احتاجت إلى تصديق من عامة المسلمين وتوثيقهم .

والذي عليه جمهور علماء أهل السنة أن النبي ﷺ لم يعين خليفة له ، ولم يوص بتعيين أحد ، فلو أنه حدد لهم شخصاً بعينه وجعله خليفة عليهم ؛ لظن بعض الناس أنه تعيين من الله ورسوله ، وسيضفى على هذا الشخص نوعاً من القداسة تجعله فوق النقد والمحاسبة ، وهذا أمر خطير لا محالة ، فولى الأمر عند المسلمين بشر ، يخطئ ويصيب ، فإذا أصاب أعانوه ، وإذا أخطأ قوموه .

وكما لم يعين النبي ﷺ شخصاً بعينه لتولّى الأمر من بعده ، فإنه لم يحدد للمسلمين أيضاً الطريقة التي يختارون بها من يتولى أمورهم ؛ لأنها تخضع لتطور الظروف والأحوال ، ومن هنا كان في ترك النبي لهذا الأمر مصلحة للمسلمين ، حتى لا يقيدهم بشخص ، أو بطريقة معينة ، وقد

الخليفة الأول

(١١ - ١٣)

هو «عبد الله بن عثمان بن عامر» من قبيلة «تميم بن مرة بن كعب»، وفي «مرة بن كعب» يلتقي نسبة مع نسب النبي ﷺ ، وأمه «أم الخير سلمى بنت صخر ابن عامر» تميمية كأيها وكنيته: «أبو بكر»، ولقبه: «عتيق».

وُلد «أبو بكر» سنة (٥٧٣م) بعد مولد الرسول ﷺ بثلاثة أعوام، ونشأ في «مكة»، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر؛ لعلمه وتجارته وحسن مجالسته. وعُرف «أبو بكر» بترفعه عن عادات الجاهلية ، وما كانوا يقتربونه من مجون وشرب خمر ، وارتبط قبل البعثة بصداقة قوية مع رسول الله ﷺ ، وكان الاتفاق في الطباع وصفاء النفس من أقوى الروابط بين النبي و«أبي بكر» .

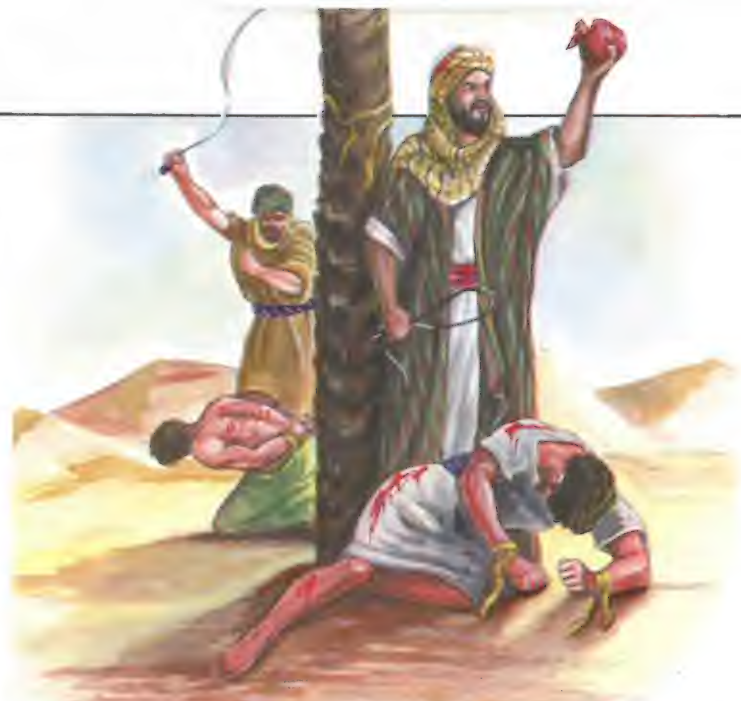
* إسلامه :

تُجمع مصادر السيرة والتاريخ على أن «أبا بكر» كان أول من أسلم وآمن بالنبي ﷺ من الرجال الأحرار ، وكان لسلامة فطرته التي كانت تعاف ما عليه قومه من عبادة الأوثان أثر في تبكيه بالدخول في الإسلام ، وما إن دعاه النبي ﷺ إلى الإسلام حتى أسلم على الفور؛ لثقتة بصدق النبي ﷺ وأمانته يقول النبي ﷺ : «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة - تأخر في الإجابة - إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ، ما عكم عنه - تأخر عنه - حين ذكرته له ، وما تردد فيه» .

ومنذ أن أسلم وهو يهب نفسه وماله لله ورسوله ، فكان يشتري من أسلم من العبيد الذين كانت «قريش» تعذبهم ، ويعتقهم كبلال ابن رباح ، وكان يذود عن النبي ﷺ بكل ما أوتي من قوة ، فيروى «البخاري» عن «عبد الله بن عمرو ابن العاص» قوله : «رأيت عقبة وهو يصلي ، فوضع رداءه في عنقه ، وخنقه به خنقاً شديداً ، فجاء أبو بكر - رضى الله عنه - حتى دفعه عنه ، فقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم» .

[صحيح البخاري]

ومن أجل مواقف «أبي بكر» تصديقه للنبي ﷺ في حادث الإسراء ، فحين أخبر النبي ﷺ



غيره- ، وكان هذا أقوى مرشح له لتولي الخلافة بعد وفاة النبي ﷺ .

* أبو بكر الصديق ومستويات الخلافة :

بعد أن بويع «أبو بكر الصديق» البيعة العامة قام فخطب الناس خطبة قصيرة ، وضع لهم فيها منهجه في الحكم ، فقال بعد أن حمد الله وصلى على نبيه :

«أما بعد أيها الناس فإنني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندي حتى أزيح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى أخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحكم الله» .

بذلك أسرعوا إلى «أبي بكر» يخبرونه ، ظنا منهم أنه لن يصدق ، فقال لهم : «والله لئن كان قاله لقد صدق ، فإنني أصدق في أبعد من هذا ، أصدق في خبر السماء يأتيه في ساعة من ليل أو نهار» ، فلُقب بالصديق من يومئذ . واختاره النبي ﷺ - لثقتة - به ليرافقه في رحلة الهجرة دون غيره من الصحابة ، ثم لازم النبي بعد الهجرة في ليله ونهاره ، فلم يتخلف عن غزوة من غزواته أو مشهد من مشاهدته ، وكان مجاهداً بنفسه وماله حتى وصفه النبي بقوله : «ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه بها ، إلا أبا بكر ، فإن له عندنا يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة ، وما نفعتني مال أحد قط ما نفعتني مال أبي بكر» .

ومما لاشك فيه أن «أبا بكر الصديق» عند علماء الأمة أفضل المسلمين مطلقاً بعد رسول الله ﷺ ، ودليل ذلك أنه جعله أميراً على الحج في العام التاسع من الهجرة ، وأتابه في الصلاة عند مرضه - دون

كلمات قليلة وبسيطة ، لكنها في غاية الأهمية ، تحمل اعتراف الخليفة الأول بحق الأمة في مراقبة تصرفات حاكمها ونقده وتقويمه إن جانب الصواب .

كان أول القرارات التي اتخذها «أبو بكر» وأصعبها قراره بإفناذ جيش «أسامة» إلى «جنوبي الشام» ، كما أمر به رسول الله ﷺ ، وذلك لأن «الصدىق» أقدم عليه في ظروف دقيقة وحرجة ، فالعرب قد ارتدت عن الإسلام ، حتى «مكة» نفسها همت بالردة ، لولا أن «سهيل بن عمرو» روعهم ، قائلا : «لماذا ترتدون والنبوة كانت فيكم؟» ، وحاولت «الطائف» أنت ترتد ، فممنع من حدوث ذلك عقلاؤها ؛ إذ قالوا لقومهم : لقد كنتم آخر من أسلم ، فلا تكونوا أول من يرتد .

كما استفحل أمر مدعى النبوة «مسيلم الكذاب» في «اليمامة» شرقى شبه الجزيرة العربية ، و«طليحة بن خويلد الأسدي» في «بنى أسد» ، في منطقة «بذاحة» - ماء لبنى أسد يقع إلى الشرق من «المدينة المنورة» -

و«لقيط بن مالك» في «عمان» جنوبى شرقى بلاد العرب ، و«الأسود العنسى» فى «اليمن» .

وكل أولئك ظهوروا فى أواخر حياة النبى ﷺ ، لكنه لم يحفل بهم كثيرا ؛ لثقتة بالقدرة على القضاء على تلك الحركات ، وفى الوقت نفسه أمر بإفناذ جيش «أسامة» بن زيد» إلى جنوب «الشام» ؛ لتأديب القبائل القاطنة هناك ، التى تعادى المسلمين ، ولتثبيت هيبة الإسلام فى أعين الروم ، التى فرضها عليهم فى غزوة «تبوك» ، وللفت أنظار أصحابه إلى خطورة دولة الروم على الإسلام ، لكن هذا الجيش لم يذهب لأداء مهمته لمرض النبى ﷺ ووفاته ، فكان أول قرار

للصدىق ، هو تنفيذ ما عزم عليه الرسول ﷺ .

لكن الصحابة جميعا عارضوا «أبا بكر» فى قراره بإرسال جيش «أسامة» ، وتعللوا بأن الردة قد عمت شبه جزيرة العرب ، وأن الخطر داهم ومصدق بهم ، حتى لم تسلم منه «المدينة» نفسها ، واشترأت أعناق أعداء الإسلام من يهود ونصارى وغيرهما ، وتحفزوا للقضاء على الإسلام ، ولذا فإن بقاء الجيش فى «المدينة» ضرورة ملحة ؛ لحمايتها من الأخطار المحدقة بها .

لكن ذلك كله لم يثن عزيمة الصدىق عن إرسال جيش «أسامة» ووقف كالأسد الهصور يذود عن الإسلام باتخاذ ذلك القرار الصعب قائلا : «والذى

نفس أبى بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تخطفتنى لأنفذت بعث أسامة ، كما أمر به رسول الله ﷺ ، ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته» .



وقد ظهرت نتائج سياسة «الصدىق» الموفقة ، عندما ذهب جيش «أسامة» وحقق ما قصده الرسول ﷺ من أهداف ، وعاد محملا بالغنائم ، وألقى الرعب والفرع فى قلوب القبائل العربية التى مر عليها فى شمالى شبه الجزيرة العربية وهو فى طريقه إلى الشام ؛ لأنهم قالوا : «لو لم يكن بالمسلمين قوة لما أرسلوا هذا الجيش الكبير إلى هذا المكان البعيد فى مثل هذا الوقت» ؛ ولذا كانت حركة الردة فى المناطق التى مر بها «أسامة» بجيشه أضعف منها فى أى مكان آخر من شبه الجزيرة العربية .

* حركة الردة :

يعد موقف «الصدىق» من حركة الردة ومواجهته لها من أروع المواقف فى التاريخ ، لأنه آمن إيمانا عميقا بانتصار الحق مهما تكن قوة أعدائه ، وأظهر تصميمًا على الدفاع عن الإسلام مهما يذل من جهد .

وقد بدأت حركة الردة بالقبائل التى منعت الزكاة كعبس و«ذبيان» و«غطفان» وغيرها ، حيث أرسلت وفداً إلى «المدينة» ، يعرض على «الصدىق» مطالبهم ، وأنهم لم يرفضوا الإسلام ، ولكنهم يرفضون دفع الزكاة لحكومة «المدينة» ؛ لأنها فى ظنهم معرة ، ويعدونها إتاوة تدفع لأبى بكر ، ولم تدرك تلك القبائل أثر الزكاة فى التكافل الاجتماعى بين المسلمين .

كان رأى فريق من الصحابة وعلى رأسهم «عمر بن الخطاب» أن يستجيب «أبو بكر» لتلك القبائل ، ولا يجبرها على دفع الزكاة ، وخاصة أن «المدينة» مكشوفة ، وليس بها قوة تحميها وتدافع عنها ؛ لأن جيش «أسامة» لما يعد بعد من شمالى بلاد العرب ، لكن «الصدىق» لم يقتنع بهذا رأى ، ورد على «عمر بن الخطاب» رداً جازماً قائلا له :

والله لو منعونى عقلا -الحبل الذى يجرب به الحمل - لجاهدتهم عليه .

وكان هذا الموقف الشابت من «الصدىق» رائعا كل الروعة ، فماذا لو وافق «أبو بكر» «عمر» ومن معه على رأيهم ؟ ربما شجع هذا التنازل قبائل أخرى ، فتمتنع عن دفع الزكاة أسوة بهؤلاء ، ولربما تطور الموقف إلى أبعد من هذا ، فتمتنع قبائل عن إقامة الصلاة أو غيرها من أركان الإسلام ، ويكون هذا هدمًا للدين من أساسه . وكان «الصدىق» حين فعل هذا تمثل واقتدى بموقف لرسول الله ﷺ عندما جاءه وفد «ثقيف» يعلنون إسلامهم ، ويطلبون منه إعفاءهم من أداء الصلاة ، فرفض النبى ﷺ ذلك ، وقال لهم : «لا خير فى دين لاصلاة فيه» ، ولعل «الصدىق» قصد ذلك حين قال : «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة» .





وفعل الروم البيزنطيون ما فعله
الفرس ، فاعتدوا في حروب الردة
على جيش «خالد بن سعيد بن
العاص» في منطقة «تيماء» شمالي
«الحجاز» ، وألحقوا به هزيمة كبيرة
وقتلوا معظم جنوده .

* المواجهة السلمية :

أراد «أبو بكر الصديق» أن يبصر
المرتدين بخطورة ما أقدموا عليه ،
فواجههم مواجهة سلمية بأن دعاهم
إلى العودة بدون قتال إلى
الإسلام ، الذي أكرمهم الله به
وأرسل إليهم كتاباً يقرأ على القبائل
كلها ؛ لعلهم يعقلون ، جاء في
آخره :

« وإنني بعثت إليكم فلاناً في
جيش من المهاجرين والأنصار
والتابعين بإحسان ، وأمرته ألا
يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه
إلى داعية الله ، فمن استجاب له
وأقرَّ وكف وعمل صالحاً ، قبل منه
وأعانه عليه ، ومن أبى أمرت أن
يقاتله على ذلك ، ثم لا يبقى على
أحدٍ منهم قدر عليه ، .. ولا
يقبل من أحدٍ إلا الإسلام فمن
اتبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن
يعجز الله ، وقد أمرت رسولي أن
يقرأ كتابي في كل مجمع لكم ،
والداعية الأذان ، فإذا أذن المسلمون
فأذّنوا كفوا عنهم ، وإن لم يؤذّنوا
عاجلوهم ... » .

* الاستعداد العسكري :

وفي الوقت الذي كان يأمل فيه
أن يستجيب المرتدون ، ويعودوا
إلى دين الله دون قتال ؛ كان يعد
أحد عشر جيشاً في وقت واحد ،
تغطي المناطق التي ارتد أهلها في
شبه جزيرة العرب ، جاهزة
للانطلاق إلى كل منطقة ؛ ليشغل
كل قبيلة بالدفاع عن نفسها في
ديارها ، ولا تأخذ فرصة للتجمع
والتكتل ضده ، وكان هذا تصرفاً
بارعاً وحكيماً من «الصديق» .

واختار «الصديق» لهذه الجيوش
أمهر القادة وأكثرهم خبرة بالقتال ،
وهم : «خالد بن الوليد» ، سيف
الله وعبرى الحرب ، وأمره بقتال
المرتدين من «بنى أسد» و«غطفان»
وحلفائهم بقيادة «طليحة بن
خويلد» في «بذاخة» ، فإذا انتهى
من مهمته توجه لقتال المرتدين من
«بنى تميم» في «البطاح» ، إلى
الشرق من ديار «بنى أسد» .

- و«عكرمة بن أبي جهل»
وأردفه بشرحبيل بن حسنة ،
وأمرهما بالتوجه إلى «مسيلمة»
والكذاب ومن معه في «اليمامة» ،
وأمرهما ألا يقاتلاه حتى يأمرهما
بذلك ، لمعرفة «أبي بكر» بقوة

جيش «مسيلمة» ، وأنهما لن يقدر
على هزيمته بسهولة ، بل يشغلاه
حتى يحين الوقت المناسب لإرسال
قوات أكبر ؛ لمواجهة «بنى حنيفة»
في جموعهم الكبيرة .

- و«العلاء بن الحضرمي» ،
وأمره بقتال المرتدين في «البحرين»
وما والاها .

- و«حذيفة بن محصن» ،
وأمره بقتال المرتدين في «دبا» في
جنوبي شرقي شبه الجزيرة .

- و«عرفجة بن هرثمة» ، وأمره
بقتال المرتدين في «مهرة» في
جنوبي شبه الجزيرة .

- و«المهاجر بن أبي أمية»
المخزومي» ، وأمره بقتال المرتدين
في جنوبي «اليمن» .

- و«سويد بن مقرن» ، وأمره
بقتال المرتدين في «تهامة اليمن»
على ساحل «البحر الأحمر» .

- و«عمرو بن العاص» ، وأمره
بقتال قبائل «قضاة» في الشمال .

- و«معن بن حاجر» وأمره بقتال
المرتدين في «هوازن» و«بنى سليم» .

- و«خالد بن سعيد بن العاص» ،
وأمره أن يعسكر في «تيماء» ،
ولا يقاتل أحداً إلا إذا قوتل .

المهمة الخطيرة خير قيام ، وبعد أن
احتفى به وهنأه على عمله ، أنابه
عنه في حكم «المدينة» ، وعاد هو
إلى «ذى القصبة» ليدبر المعركة مع
المرتدين بعزيمة لا تلين .

* أسباب حركة الردة :

قبل الخوض في الحديث عن
مواجهة «أبي بكر» لحركة الردة ،
ينبغي معرفة أسبابها ، التي جعلت
تلك القبائل ترتد بعد أن أعلنت
إسلامها أمام الرسول ﷺ في السنة
الأخيرة من حياته .

- السبب الأول : أن إسلام
أغلب هذه القبائل كان ضعيفاً ،
فقد أذعنوا لقوة المسلمين ، التي لم
يكن لهم قبل بمواجهتها ؛
فاستسلموا ولم يسلموا إسلاماً
حقيقياً ، فظنوا أن وفاة الرسول
ﷺ ستفت في عضد المسلمين ،
ولن يستطيعوا مواجهتهم .

- والسبب الثاني : أن العصبية
القبلية كانت عندهم قوية ، فمعظم
المرتدين الذين التفوا حول مدعى
النسوة كانوا يعلمون صدق النبي
ﷺ ، ولكن كل قبيلة كانت تريد أن
يكون لها نبي من أبنائها ولو كان
كذاباً ، كما لقريش نبي من أبنائها ،
وعبروا عن ذلك بوضوح



ولم يكن «الصديق» صاحب
قرارات صائبة فحسب ، بل كان
يقرنها بالعمل على تنفيذها ، فلما
رأى الغدر في عيون مانعي الزكاة
أدرك أنهم سيهاجمون «المدينة»
على الفور ؛ لأنهم عرفوا غياب
معظم الرجال مع جيش «أسامة» ،
وأعلن حالة الاستعداد للدفاع عن
«المدينة» عقب عودة المانعين إلى
ديارهم ، واتخذ مسجد رسول
الله ، مقراً لغرفة عمليات عسكرية ،
وبات ليلته يعد للمعركة ويستعد
لها ، وأمر عدداً من كبار الصحابة
بحراسة مداخل «المدينة» ، على
رأسهم «علي بن أبي طالب» ،
و«طلحة بن عبيدالله» ، و«الزبير
ابن العوام» ، و«عبدالله بن
مسعود» رضى الله عنهم .

وحدث ما توقعه «الصديق»
فبعد ثلاثة أيام فقط هاجم مانعو
الزكاة «المدينة» ، فوجدوا المسلمين
في انتظارهم ، فهزمهم المسلمون
وردوهم على أعقابهم إلى «ذى
القصبة» - شرقي «المدينة» . ثم
تعقبهم «الصديق» وألحق بهم هزيمة
منكرة ، وفرت فلولهم ، وغنم
المسلمون منهم غنائم كثيرة ،
واتخذ «الصديق» من «ذى القصبة»
مكائناً لإدارة المعركة ضد حركة
الردة كلها ، وفي هذه الأثناء
جاءت الأخبار بوصول جيش
«أسامة» سالماً غانماً ، فأسرع
«الصديق» بنفسه لاستقبال قائد
الجيش الشاب ، الذي قام بهذه

أهم معارك حروب الردة

لم يستجب المرتدون لدعوة «أبى بكر» السلمية ، فبدأ قاداته ينفذون ما عهد إليهم من مهام ، وخاض «خالد بن الوليد» أول معارك الردة في «بذاخة» ضد المرتدين من «غطفان» و«بنى أسد» وحلفائهم ممن التفتوا حول «طليحة ابن خويلد الأسدي» مدعى النبوة ، وكان النصر حليف «خالد» ، بعد أن ألحق بهم هزيمة منكرة وغنم كثيراً ، وأرسل عدداً من زعمائهم أسرى إلى الخليفة ، وفر «طليحة» ، وظهر كذبه ، ويجدر بالذكر أن «طليحة» قد أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه في عهد «أبى بكر الصديق» ، واشترك في الفتوحات الإسلامية في «فارس» ، في عهد

«عمر بن الخطاب» ، وکان له دور بارز فيها .

وبعد ذلك توجه «خالد بن الوليد» إلى «البطاح» في «نجد» لقتال المرتدين من «بنى تميم» بزعامة «مالك بن نويرة» ، ونجح في إلحاق الهزيمة بهم ، والقضاء على الردة في بلادهم .

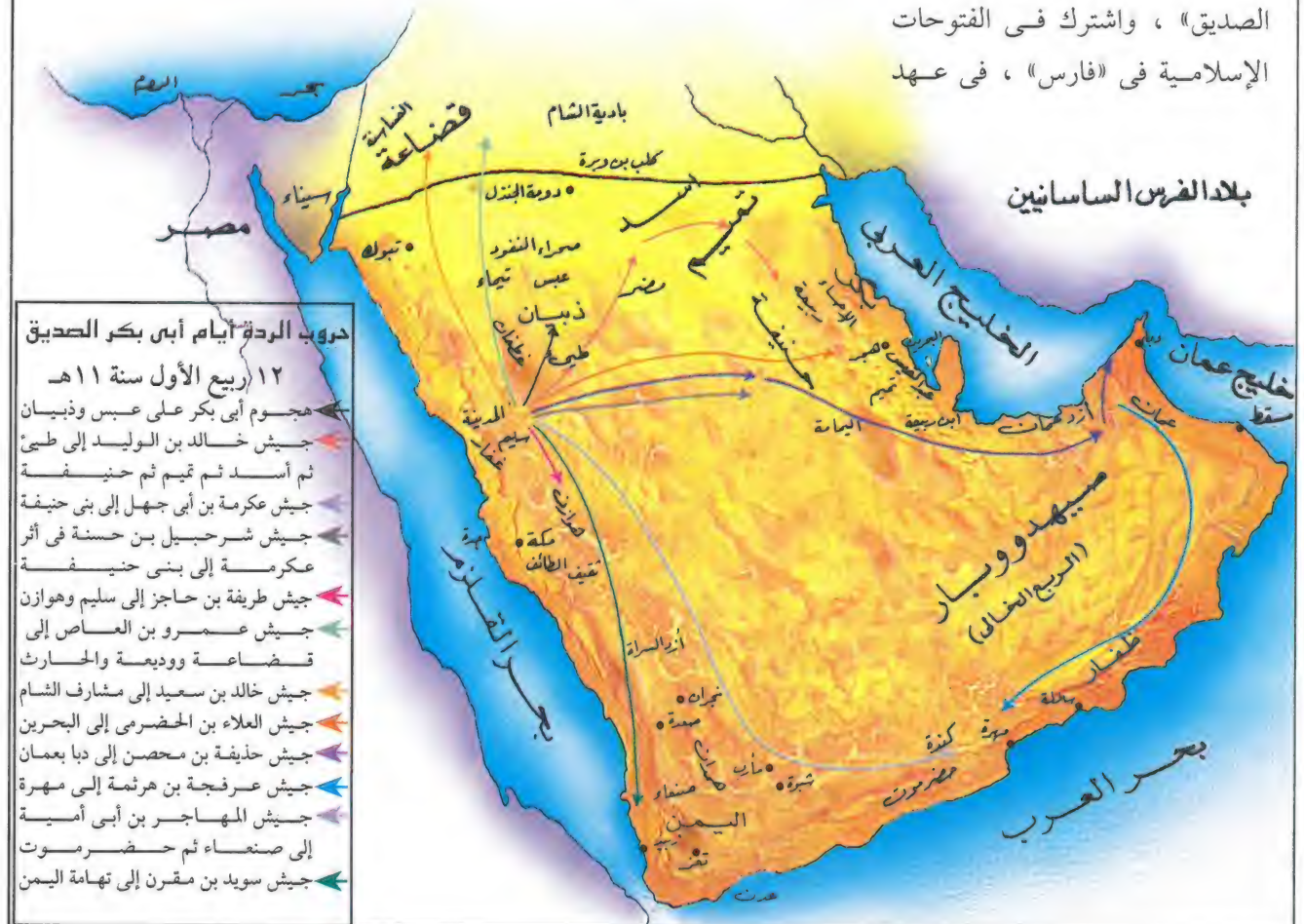
* معركة اليمامة :

«اليمامة» مصطلح جغرافي قديم، يشمل المناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية التي تقع فيها الآن مدينة «الرياض» عاصمة المملكة العربية السعودية» .

ووقعت معركة «اليمامة» نفسها في مكان قريب من هذه المدينة .

وسبق أن ذكرنا أن «أبا بكر»
أرسل «عكرمة بن أبي جهل»
و«شرحبيل بن حسنة» للوقوف في
وجه «مسيلمة» ، ولم يأمرهما
بقتال؛ لكنهما تعجلا مخالفين أوامر
الخليفة ، واشتبكا مع «مسيلمة» في
حرب لم يصمدا فيها، وعادا
منهزمين ، ولعلهما أرادا أن يتشبا
بخالد بن الوليد حتى يحوزا أكايل
النصر، كما حازها هو.

وما إن وصلت أنباء هزيمتهما
إلى «أبي بكر» حتى غضب غضباً



هروب الردة أيام أبي بكر الصديق
١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ
هجوم أبي بكر على عبس وذبيان
جيش خالد بن الوليد إلى طي
ثم أسد ثم قيم ثم حنيفة
جيش عكرمة بن أبي جهل إلى بني حنيفة
جيش شرحبيل بن حسنة في أثر
عكرمة إلى بني حنيفة
جيش طريف بن حجاز إلى سليم وهوازن
جيش عمرو بن العاص إلى
قضاة ودبيعة والحارث
جيش خالد بن سعيد إلى مشارف الشام
جيش العلاء بن الحضرمي إلى البحرين
جيش حذيفة بن محصن إلى دبا بعمان
جيش عرفة بن ربيعة إلى مهرة
جيش المهاجر بن أبي أمية
إلى صنعاء ثم حضرموت
جيش سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن

شديداً ، وطلب منهما ألا يعودا إلى «المدينة» ، وقرر فى الوقت نفسه أن يرسل «خالد بن الوليد» إلى «اليمامة» للقضاء على فتنة «مسيلة» ، فهو أصلح الناس لهذه المهمة . وكان «خالد» قد فرغ من القضاء على فتنة المرتدين من «بنى أسد» و«غطفان» و«تميم» ، فجاءته أوامر من «أبى بكر» بالتوجه إلى «اليمامة» للقضاء على فتنة «مسيلة» الكذاب .

امتثل «خالد بن الوليد» لأوامر الخليفة ، وسار في صحراء وعرة نحو ألف كيلو متر ، حتى التقى بجيوش «مسيلمة» - وكانت نحو أربعين ألفاً - فى مكان يسمى «عقرباء» فى حين كانت قوات «خالد» تبلغ نحو ثلاثة عشر ألفاً ، فيهم عدد كبير من المهاجرين والأنصار ، ودارت الحرب بين الفريقين ، وكانت حرباً شرسة ، اشتدت وطأتها على المسلمين فى البداية ، وكادوا ينهزمون ، لولا أن زار «خالد» كالأسد الهصور ، ونادى بأعلى صوته «وامحمداه» ، وكان شعار المسلمين فى المعركة ، فاشتعلت جذوة الإيمان فى القلوب، وهانت الحياة على النفوس ، وأقبل المسلمون على القتال دون خوف أو وجل ، طمعاً فى النصر أو الشهادة ، وصبروا لأعداء الله حتى هزموهم هزيمة منكرة ، وقتلوا «مسيلمة» الكذاب

مع نحو عشرين ألفاً من رجاله ،
واستسلم من بقي من قواته أسرى
للمسلمين ، واستشهد من المسلمين
أكثر من ألف ومائتي رجل ، منهم
عدد كبير من القراء وحفظة القرآن
الكریم .

و حين ترامت إلى المرتدين أخبار
انتصارات «خالد» وما فعله في
«بنى حنيفة» ، وقر في أذهانهم أن
المسلمين لا ينهزمون ؛ ولذا كانت

* أسبابها :

من يتتبع حركة الفتوحات الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية يجد أنها جاءت استطراداً ، وجاءت تحت ضغط الظروف ، وأن المسلمين اضطروا إليها اضطراراً ؛ إذ لم يكن لهم برنامج أو خطة معدة من قبل للفتح أو التصادم مع الآخرين ؛ لأن نشر الإسلام ، وهو الغاية الأولى للمسلمين ، لا يتطلب أعمالاً حربية أو الدخول في معارك عسكرية ، وكل ما كان يطلبه المسلمون هو أن يفسح لهم الآخرون الطريق ليدعوا إلى دينهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولكن الفرس والروم لم يعطوا المسلمين هذه الفرصة ، فكادوا لهم واعتدوا عليهم ، مما اضطّر المسلمين إلى

مهمة بقية القادة في المناطق التي
توجهوا إليها أقل صعوبة مما واجهه
«خالد بن الوليد» في «اليمامة» .

وقبل أن يمضى عام على بدء حركة الردة كان «أبو بكر الصديق» قد نجح فى القضاء عليها فى كل مكان ، وعادت شبه الجزيرة العربية موحدة دينياً وسياسياً تحت لواء المسلمين وحكومتهم فى «المدينة» ما كانت فى آخر حياة الرسول ﷺ .

الفتوحات الإسلامية في عهده

خوض الحروب معهم، ورد
عدوانهم، وتحقيق الحرية لنشر
العقيدة الإسلامية دون عوائق،
وليس لنشر العقيدة، والفرق كبير
بين المعنيين.



* فتح العراق :

في أثناء حروب الردة طارد «المثنى بن حارثة» - أحد قادة المسلمين - المرتدين إلى الشمال ، على الساحل الغربي للخليج العربي ، فلما وصل إلى حدود «العراق» تكاثرت عليه قوات الفرس ، بعد أن رأوا فشل عملائهم من المرتدين في القضاء على الإسلام فألقوا بثقلهم في المعارك ضد المسلمين .

ولما رأى «المثنى» أنه غير قادر بمن معه على مواجهة القوات الفارسية ، أرسل إلى الخليفة يشرح له الموقف ، ويطلب منه المدد ،

فأدرك الخليفة خطورة الموقف ، ورأى أن يردع الفرس ويرد عدوانهم ، فرماهم بخالد بن الوليد أعظم قواده ، وأردفه بعباس بن غنم .

وفي المحرم من العام الثاني عشر من الهجرة تحرك «خالد بن الوليد» من «اليمامة» ، وكان لا يزال بها ، بعد أن قضى على فتنة «مسيلمة الكذاب» ، وتوجه إلى «العراق» . حيث خاض سلسلة من المعارك ضد الفرس في خلال عدة شهور ، في «ذات السلاسل» و«المدار» ، و«الولجة» ، و«أليس» ، وهذه أسماء الأماكن التي دارت فيها الحروب ،

وكان النصر حليفه فيها ، ثم توج انتصاراته بفتح «الحيرة» عاصمة «العراق» في ذلك الوقت ، واستقر بها في شهر ربيع الأول من العام نفسه ، ثم فتح «الأنبار» و«عين التمر» إلى الشمال من «الحيرة» ، ثم جاءته أوامر من «أبي بكر» أن يعود إلى «الحيرة» ويستقر بها إلى أن تأتيه أوامر أخرى .

وخلاصة القول أنه في خلال بضعة أشهر نجح «خالد» في فتح أكثر من نصف «العراق» ، وصالح أهله على دفع الجزية ، ولم يجبر أحداً على الدخول في الإسلام .



* فتح الشام :

كان «خالد بن سعيد بن العاص» ، أحد قادة حروب الردة ، معسكراً بقواته في «تيماء» شمالي «الحجاز» بأمر من الخليفة الذي ألزمه بالأبى يقاتل أحداً إلا إذا قتل ، وقصد الخليفة بذلك أن يكون هذا الجيش احتياطياً ، يمد - عند الضرورة - القوات المحاربة في جهات أخرى ، وأن يراقب تحركات الروم ؛ لأنه كان على يقين أنهم سوف يستغلون فرصة انشغاله بحروب الردة ، ويكرروا عدوانهم .

وحدث ما توقعه «أبو بكر الصديق» ، فقد هجم الروم على جيش «خالد» ، ومعهم القبائل العربية القاطنة في الشام ، وألحقوا به هزيمة قاسية ، وقتلوا معظم جنوده ، واستشهد ابنه في المعركة ، فلما وصلت أخبار الهزيمة إلى الخليفة «أبي بكر» جمع كبار الصحابة لدراسة الموقف ، فاستقر رأيهم على ضرورة صد العدوان ، وشرع «أبو بكر» في حشد أربعة جيوش لتحقيق ذلك :

- جيش بقيادة «أبي عبيدة بن الجراح» وجهه إلى «حمص» شمالي الشام .

- وجيش بقيادة «يزيد بن أبي سفيان» ، وجهه إلى «دمشق» في وسط الشام .

- وجيش بقيادة «شرحبيل بن حسنة» ، وجهه إلى «الأردن» .

- وجيش بقيادة «عمرو بن العاص» ، وجهه إلى «فلسطين» . وقال «أبو بكر» لقادة جيوشه : إذا عملتم منفردين ، فكل واحد منكم أمير على من معه من قوات - وكان مع كل واحد منهم نحو ثمانية آلاف جندي - ثم أمير على المنطقة التي يفتحها ، أما إذا ألجأكم الظروف إلى الاجتماع في مكان واحد ، فالقائد العام «أبو عبيدة بن الجراح» .

* معركة اليرموك :

تحرك القادة الأربعة بجيوشهم ، فلما دخلوا جنوبى الشام ، وجدوا جيشاً رومياً ، قوامه نحو (٢٥٠) ألف جندي ، بقيادة «تذراق» أخى «هرقل» ، يساندتهم نحو ستين ألفاً من العرب - تقريباً - بقيادة «جبله» ابن الأيهم الغساني» ، فلم يستطيعوا الالتحام مع هذه الجموع الحاشدة ، فدارت بينهم مراسلات تجمعوا بعدها في وادي «اليرموك» ، تحت قيادة «أبي عبيدة بن الجراح» .



الجمع الأول للقرآن في عهد أبي بكر الصديق



وفاته إلى ابنته أم المؤمنين «حفصة»، وفي عهد «عثمان» دعت الضرورة إلى جمع الناس على قراءة واحدة، فأخذ «عثمان» منها، ونسخ منه عدة نسخ ووزعها على الأمصار.

وهكذا توجَّ «أبو بكر الصديق» أعماله الجليلة بجمع القرآن.

* وفاة أبي بكر الصديق :

قضى «أبو بكر» في الخلافة سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام قام فيها بجلال الأعمال، ونهض بمسئولية قيادة الدولة على خير وجه، وعاش حياته للإسلام وللمسلمين، ووهب حياته لخدمة رعيته، والدفاع عن عقيدتها، دون أن يأخذ أجرًا على عمله تبعات هذا المنصب الجليل، منصب الخليفة، وعاش مثل بقية رعيته دون أن يمتاز عنهم في مسكن أو ملبس، بل إنه رد ما خصصه له كبار الصحابة من راتب ضئيل، كي يترك التجارة ويتفرغ لمنصبه.

وفي أواخر شهر جمادى الآخرة من العام الثالث عشر للهجرة، فاضت روح «أبي بكر» إلى بارئها بعد مرض استمر أسبوعين، كان سببه الحمى وتولى بعده الفاروق «عمر بن الخطاب».

بكر حتى قبل، ثم استدعى «أبو بكر» «زيد بن ثابت الأنصاري»، وكلفه بمهمة جمع القرآن، قائلا له : «إنك رجل شاب عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه»، فقبل «زيد» هذه المهمة الثقيلة، وبدأ في تتبع القرآن، وجمعه من الرقاع والعظام، والعسب (سعف النخل) التي كان مكتوبًا عليها ومن صدور الرجال، وجعل ذلك في مصحف واحد.

وقد ظل هذا المصحف عند «أبي بكر»، ثم انتقل بعد وفاته إلى «عمر بن الخطاب»، ثم انتقل بعد

فزع «عمر بن الخطاب» لاستشهاد عدد كبير من حفظة القرآن في حروب الردة، وبخاصة معركة «اليمامة»، فأشار على «أبي بكر» بضرورة جمع القرآن في مصحف واحد؛ خشية أن يستشهد عدد آخر من الحفاظ، فيضيع القرآن، أو يدخله تحريف إذا تباعد الزمن بين نزوله وجمعه، كما حدث للكتب السابقة.

تردد «أبو بكر» في بادئ الأمر من اقتراح «عمر»، وقال : «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ»، فقال له «عمر» : «أرى والله أنه خير»، فلم يزل «عمر» بأبي

المسلمين، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليك». امثال «خالد» لأوامر الخليفة، وسار من «العراق» في سبعة آلاف جندي في واحدة من أجراً المسيرات العسكرية في التاريخ وأكثرها خطراً، حيث قطعوا أكثر من ألف كيلو متر في ثمانية عشر يوماً، في صحراء قاحلة مهلكة، حتى وصلوا إلى «وادي اليرموك» فتسلم «خالد بن الوليد» القيادة من «أبي عبيدة» وخاض معركة مع الروم تُعد من أعظم المعارك وأبعدها أثراً في حركة الفتح.

وقد استشهد من المسلمين نحو ثلاثة آلاف، وقد فتح هذا النصر العظيم الطريق لفتح بقية الشام، الذي تم في عهد «عمر بن الخطاب».



لكن تجمعهم لم يؤد إلى تحريك للموقف ضد الروم، فأخبروا الخليفة «أبا بكر» بما هم فيه، وطلبوا المدد منه، فرأى أنه لن ينقذ الموقف في الشام سوى «خالد بن الوليد»، وقال عبارته المشهورة: «والله لأتسين الروم وسأوس الشيطان بخالد بن الوليد»، ثم كتب رسالة إليه : «أما بعد فإذا جاءك كتابي هذا، فذع العراق، وخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه وامن متخففاً في أهل القوة من أصحابك الذين قدموا العراق معك من اليمامة، وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز، حتى تأتي الشام، فتلقى

أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من

عمر بن الخطاب

(١٣ - ٢٣ هـ)

* نسبه وصفته وإسلامه :

هو «عمر بن الخطاب بن نفيل ابن عبد العزى بن رباح» وأمه «حتمة بنت هشام بن المغيرة» .

أسلم في العام الخامس من البعثة، وعمره سبع وعشرون سنة، بعد أربعين رجلاً، وإحدى عشرة امرأة، أسلموا قبله، وكان قبل إسلامه معادياً للإسلام شديداً في عداوته، لكن الله شرح صدره للإسلام استجابة لدعاء النبي ﷺ له: «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب» .

وعُرف «عمر بن الخطاب» بشخصية قوية، وإرادة لا تلين، وحزم وعزم في الأمور، وهيبة في القلوب، وكان سفير «قريش» في الجاهلية، وهي مهمة تحتاج إلى علم وعقل، وكياسة وحسن تصرف .

عمل «عمر» في بداية نشأته بالرعى، ثم عمل في التجارة إلى الشام وإلى «اليمن»، وكان يحرص على مقابلة ذوى الشأن في تلك البلاد؛ ليزداد علماً وخبرة بالحياة، وكان واحداً من سبعة عشر رجلاً من «قريش» يعرفون القراءة والكتابة في «مكة» .

كأنه راكب على دابته، أبيض اللون تعلوه حمرة، جهورى الصوت، قليل الضحك، لا يمازح أحداً، مقبلاً على شأنه .

أما صفاته الأخلاقية فهي «الإحساس الكامل بالمسئولية، والشدة والفراسة، والعدل والهيبة، وواضح أن هذه الصفات هي نتاج عوامل كثيرة متنوعة، مثل نشأة «عمر» الأولى وثقافته، والقيم التي غرسها الإسلام في نفسه . أما إحساس «عمر» الكامل بمسئوليته قبل الرعية، فذلك ما لاحتاجة بنا إلى التدليل عليه، ويمكن إرجاعه إلى النزعة الدينية التي ملكت عليه شغاف نفسه، والتي شهد له بها الجميع، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ، فالعقيدة وحدها هي التي تبلغ بالمرء هذا المستوى القدسي، وهي التي تجعل الإنسان رقيقاً على نفسه في جميع حركاته وسكناته، ولن تغنى عنها أية رقابة أخرى» .

* عمر والرسول ﷺ :

احتل «عمر بن الخطاب» منذ أن أسلم المكانة التالية لمكانة «أبي بكر الصديق» عند النبي ﷺ، لصفاته

واشتهر «عمر» دون غيره من الصحابة بمواقف كثيرة، كان يناقش النبي ﷺ فيها ويعترض عليه في صراحة، مثل: موقفه من أسرى «بدر»، و«صلح الحديبية» والصلاة على «عبدالله بن أبي بن سلول» رأس النفاق، ولم يكن النبي ﷺ يضيق بذلك، بل يسمع برحابة صدر وسعة أفق، ويشجع «عمر» وغيره على إبداء آرائهم دون خوف أو وجل، يعلمهم بذلك حرية الرأي، والمشاركة في صنع القرار .

وكثير من تلك الآراء التي عارض فيها النبي ﷺ نزل القرآن مؤيداً لها لفرط إخلاصه لدينه، وشفافية روحه، وقد عدَّ العلماء نحو عشرين موقفاً من هذا القبيل منها: تحريم الخمر، وضرب الحجاب على زوجات النبي ﷺ .

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل «عمر»، منها قوله ﷺ: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه» .

توليته الخلافة

أراد «الصدیق أبو بكر» أن يختار المسلمون خليفتهم بأنفسهم دون قيد، وإبرادتهم الحرة بلا تدخل، فقال لهم وهو على فراش المرض: «إني قد نزل بي ما ترون، ولا أظنني إلا ميتاً لما بي من المرض، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحلَّ عنكم عقدتي، ورد عليكم

أمركم، فأمروا عليكم من أحببتهم، فإنكم إن أمرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدى» .

لكنهم طلبوا منه أن يرشح لهم من يراه أهلاً لتولي الخلافة بعده، وأقدر على تحمل تبعاتها الجسام، فقبل ذلك، وطلب منهم مهلة حتى ينظر لله ولدينه ولعباده، وبعد تفكير عميق، واستشارة لكبار الصحابة مثل: «عثمان بن عفان» و«علي بن أبي طالب» و«عبد الرحمن بن عوف» استقر رأيه على «عمر بن الخطاب» .

ولم يكن ترشيح كبار الصحابة «عمر بن الخطاب» للخلافة وتزكيته له، بعد «أبي بكر» غريباً أو مفاجئاً، فهم يعرفون قدره ومنزلته، وقد سبق أن ذكرنا تقديم النبي ﷺ «أبا بكر» ليؤم الناس في الصلاة، ورفضه أن يقوم بهذا «عمر بن الخطاب»، فلما تأخر «أبو بكر» يوماً عن الصلاة، قدَّم «بلال» «عمر بن الخطاب» اجتهاداً منه ليؤم الناس، فلما سمع الرسول «عمر» يقيم الصلاة رفض ذلك، وقال «أين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون» .

وعلى الرغم من ذلك فإن هذا التصرف التلقائي من «بلال» يدل على أن الصحابة كانوا يعلمون أن أفضل الناس بعد «أبي بكر الصديق» هو «عمر بن الخطاب» .

ولم يعترض على ترشيح «عمر» للخلافة إلا عدد قليل من كبار

الصحابة، وعللوا ذلك بغلظته وشدته، لكن «أبا بكر» طمأنهم وبين لهم أن ما يجدونه من شدته، إنما هو لله وفي الله، وإنه يشتد لأنه يراني أحياناً ليناً، حتى يحدث نوعاً من التعادل، وأنه لو أفضى الأمر - أى الخلافة - إليه لترك كثيراً مما هو فيه .

ولا يقلل هذا الاعتراض من سداد رأى «أبي بكر» في «عمر»، ولا من شأن «عمر» نفسه، بل يدل ذلك على حرية الرأي تجاه الشخصية التي ستلى أمر الخلافة، فلن يضير «عمر» أن نفرأ من ذوى رأى لم يؤيدوا ترشيحه، بل يكفيه أن أغلب الصحابة أجمعوا على تركيته، ورضوا به لهذا المنصب الجليل، وهذا ما تسير عليه الآن الأمم الحرة في اختيار حكامها، فالإجماع ليس شرطاً ضرورياً في اختيار الحاكم .

اطمأنَّت نفس «أبي بكر الصديق» بعد أن استشار كبار الصحابة إلى اختيار «عمر بن الخطاب» خليفة من بعده، فأشرف على الناس وهو مريض، وقال: «أترضون بمن أستخلف عليكم؟»، فأبى الله ما آلت من جهد الرأى، ولا وليت ذا قرابة، وإنى قد وليت عليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا فقالوا: سمعنا وأطعنا .

بايع المسلمون «عمر بن الخطاب»، وبذا أصبحت خلافته شرعية .

وبعد الفراغ من دفن «أبي بكر الصديق» صعد «عمر بن الخطاب» منبر رسول الله ﷺ ، ووقف على درجة أدنى من الدرجة التي كان يقف عليها «أبو بكر الصديق» ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ، وذكر «أبا بكر» - رضى الله عنه - بكل خير ، وقال : «أيها الناس ما أنا إلا رجل منكم ، ولولا أنني كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم» ، فأثنى المسلمون عليه خيراً ، وزاد ثناؤهم حين رأوه يرفع بصره إلى السماء ويقول : «اللهم إني غليظ فليتي ، اللهم إني ضعيف فقوني ، اللهم إني بخيل فسخني» .

وفي اليوم التالي لتولية الخلافة خطب خطبة أخرى ، أراد أن يوضح فيها طريقته في الحكم ، ويزيل ما قد علق في نفوسهم من خوف من شدته التي صرحوا بها لأبي بكر حين رشحه للخلافة ، فقال :

«بلغني أن الناس هابوا شدتي وخافوا غلظتي ، وقالوا : كان عمر يشند علينا ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق .. إني كنت مع رسول الله فكنت عبده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله تعالى بالمؤمنين رءوفاً رحيماً ، فكنت بين يديه سيقاً مسلولاً ، حتى يغمدني أو يدعني فأمضي ، فلم أزل مع رسول الله حتى توفاه الله ، وهو عني راض ، والحمد لله كثيراً ، وأنا به أسعد ، ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر ، فكان من لا تنكرون دعتي وكرمه وليته ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتي بليته ، فأكون سيقاً مسلولاً ، حتى يغمدني أو يدعني فأمضي ، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل ، وهو عني راض ، فالحمد لله على ذلك كثيراً ، وأنا به أسعد ، ثم إني وليت أموركم أيها الناس ، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت - أي زادت - فارتعد بعضهم من الخوف لكنه طمأنهم فقال : ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين ، فأما أهل السلامة والقصد - أي الاعتدال - فأنا ألين لهم من بعضهم على بعض ، ولست أدع أحداً يظلم أحداً أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمي على الخد الآخر ، حتى يذعن بالحق ، وإني بعد شدتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف ، ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم ، فخذوني بها ، لكم على ألا أجبي شيئاً من خراجكم ، ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم على إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه ، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله - تعالى - وأسد ثغوركم ، ولكم على ألا ألقىكم في المهالك ، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال - أي يرعاهم - فاتقوا الله عباد الله وأعينوني على أنفسكم بكفها عني ، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم» .

الفتوحات في عهد عمر ابن الخطاب

* مواصلة فتح العراق :

بعد أن رحل «خالد بن الوليد» من «العراق» إلى الشام ؛ ليتولى قيادة الجيوش في «اليرموك» ؛ تنمّر الفرس بالثني بن حارثة خليفة «خالد» على قيادة الجيش في «العراق» وبدءوا في الضغط عليه ، فطلب مدداً من «أبي بكر» ، الذي كان مشغولاً بحرب الروم .

فلما تأخر رد «الصدّيق أبي بكر» على «الثنى» جاء بنفسه ليعرف سبب ذلك ، فوجد الخليفة على فراش المرض ، فلم يستطع أن يكلمه ، ولما علم بذلك الخليفة أدرك أن «الثنى» لم يأت إلا لضرورة ، فكان آخر كلامه لعمر ابن الخطاب أن أوصاه بتجهيز جيش ، يرسله مع «الثنى» إلى «العراق» ، لصد عدوان الفرس ، فعمل «عمر» بوصية «أبي بكر» ، وأرسل جيشاً على الفور إلى «العراق» بقيادة «أبي عبيد بن مسعود الثقفي» .

* موقعة الجسر :

وفي شهر شعبان من سنة ١٣هـ خاض «أبو عبيد بن مسعود» معركة ضد الفرس سميت بموقعة الجسر ، لأن المسلمين أقاموا جسراً على «نهر الفرات» لعبور قواتهم البالغة تسعة آلاف جندي ، وكان عبورهم النهر خطأ عسكرياً جسيماً وقع فيه «أبو عبيد» ، ولم يستمع إلى نصيحة قادة جيشه ومنهم «الثنى بن حارثة» ، الذين نبهوه إلى خطورة ذلك ، وأن موقف المسلمين غربى النهر أفضل وضع لهم ، وليتركوا قوات الفرس تعبر إليهم ، فإذا انتصروا كان عبور النهر إلى الشرق أمراً سهلاً ، وإذا انهزموا كانت الصحراء وراءهم يتراجعون فيها ، ليعيدوا ترتيب أوضاعهم ، لكن «أبا عبيد» لم يستجب لهم ، فحلت الهزيمة بالمسلمين على يد القائد الفارسي «بهمن جاذويه» ، وقُتل «أبو عبيد» نفسه ، واستشهد أربعة آلاف مسلم .

* موقعة البويب :

بذل «الثنى بن حارثة» جهداً كبيراً في تأمين عبور من بقي من

قوات المسلمين إلى الناحية الأخرى ، وأدرك أنه لا بد من خوض معركة أخرى مع الفرس ، حتى لا تؤثر الهزيمة في معنويات المسلمين ، وبخاصة أنها كانت أول مرة يهزمون فيها في هذه الجبهة منذ أن بدأت الفتوحات .

استدرج «الثنى بن حارثة» قوات الفرس للعبور إلى غرب النهر ، فعبروا إليه مدفوعين بنشوة النصر السابق ، وظنوا أن تحقيق نصر آخر سيكون أمراً سهلاً ، لكن «الثنى» فاجأهم بعد أن استثار حمية العرب القاطنين في المنطقة ، وأوقع بالفرس هزيمة كبيرة ، على حافة نهر يسمى «البويب» الذي سميت المعركة باسمه .

وعلى الرغم من هذا النصر الذي أعاد به «الثنى» الثقة إلى قواته ، فإنه أدرك بعد طول تجربة أنه لن يستطيع بمن معه من قوات أن يواجه الفرس الذين ألقوا بثقلهم كله في الميدان ، فتراجع إلى الخلف ، ليكون بمأمن من هجمات الفرس ، وأرسل «إلى» «عمر» يخبره بحقيقة الموقف .



* معركة القادسية :

رفضه دفع الجزية يعنى عزمه على حرب المسلمين ، ومنعهم بالقوة من تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس .
سمع «يزدجرد» هذا الكلام ، فأخذه العجب ، وعلته الدهشة ؛ لأنه لم يتعود سماع مثل هذا الكلام من هؤلاء الناس ، فخاطب رئيس الوفد قائلا : «إني لا أعلم أمة كانت أشقى ، ولا أقل عدداً ، ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي -الحدود- فيكفونناكم ، لا تغزون فارس ، ولا تطمعون أن تقوموا لهم .. وإن كان الجهد - الجوع - دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم» .

فقام زعيم الوفد ورد على الملك الذى كان لا يزال يتحدث بروح السيادة ، ومنطق الاستعلاء ، قائلا : « إن ماقلته عنا صحيح قبل بعث النبي ﷺ ، الذى قذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله .. وقال : من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه» .

لما وصلت إلى «عمر بن الخطاب» تقارير «الثنى» عن الوضع فى جبهة «العراق» عزم على الخروج بنفسه على رأس جيش كبير ، لينسى الفرس وسائوس الشيطان كما أنسى «خالد بن الوليد» الروم تلك الوسائوس ، لكن الصحابة لم يوافقوه على رأيه ، ورأوا أن الأفضل أن يبقى هو فى «المدينة» يدير أمور الدولة ، ويشرف على تجهيز الجيوش ، ويختار واحداً لقيادة الحرب ضد الفرس ، فقبل نصيحتهم ، وقال لهم : أشيروا على ، فأشاروا عليه بسعد بن أبى وقاص ، وقالوا عنه : هو الأسد فى عرينه ، فاستدعى «سعداً» وأمره على الجيش ، فاتجه به «سعد» إلى «العراق» حيث عسكر فى القادسية .

وقبل نشوب المعركة أرسل «سعد» وفداً إلى بلاط فارس ، ليعرض الإسلام على «يزدجرد الثالث» آخر ملوكهم ، فإذا قبله فسيتركونه ملكاً على بلاده ، كما ترك رسول الله ﷺ «بازان» ملكاً على «اليمن» ، وإذا رفض الدخول فى الإسلام ، فلن يكرهه عليه أحد ، ولكن لابد من دفع الجزية دليلاً على عدم المقاومة ، فإذا امتنع عن دفعها ، حاربوه ، لأن

* فتح المدائن :

انفتح الطريق أمام المسلمين بعد انتصارهم فى «القادسية» إلى «المدائن» عاصمة الفرس ، فعبر «سعد» نهر «دجلة» من أضيق مكان فيه بنصيحة «سلمان الفارسي» ، ودخل «المدائن» ؛ ليجد الملك الفارسي قد فر منها ، وكان قبل أيام قليلة يهدد المسلمين ويتوعدهم من قصره الأبيض ، مقرر ملك الأكاسرة ، الذى كان آية من آيات الفخامة والبهاء .

وفى ذلك القصر صلى «سعد ابن أبى وقاص» صلاة الشكر لله على هذا الفتح العظيم وتلا فى خشوع قول الله تعالى :

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِنٍ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾

[الدخان : ٢٥ - ٢٩]

أرسل «سعد» إلى «عمر بن الخطاب» رسولا يشره بالنصر وبما حازوه من غنائم ، ويطلب منه السماح لهم بمواصلة الفتح فى بلاد فارس ، لكن «عمر» رفض ذلك ، وقال له : «وددت لو أن بيننا وبينهم سداً من نار ، لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم ، حسبنا من الأرض السواد - أى أرض العراق - إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال» .

رفض الملك هذا العرض فى كبرياء وصلف ، ثقلة منه بقدرة جيوشه بقيادة «زئثم» على سحق هؤلاء العرب ، وعاد الوفد إلى «سعد بن أبى وقاص» وقصوا عليه ما حدث ، فاستعد هو للمعركة الحاسمة .

وفى «القادسية» دارت رحى الحرب بين الفريقين ، واستمرت ثلاثة أيام ونصف اليوم الرابع ، وأسفرت عن نصر حاسم للمسلمين ، وهزيمة منكرة للفرس ، وقتل قائدهم «رستم» ، وتشتت من نجا منهم من القتل .

وتعد معركة «القادسية» من المعارك الفاصلة فى التاريخ ؛ لأنها حسمت أمر «العراق» العربى نهائياً ، وأخرجته من السيطرة الفارسية التى دامت قروناً ، وأعادته إلى أهله العرب المسلمين .



معركة نهاوند

اعتقد «عمر بن الخطاب» أن الفرس سيجنحون إلى السلام بعد هزيمتهم في «القادسية»، واسترداد المسلمين «العراق» وهى أرض عربية، لكن الحوادث كثيراً ما تكون أقوى من الرجال، وتدفعهم دفعاً إلى تعديل سياساتهم، فقد وردت الأنباء إلى «عمر» أن الفرس النفوا حول ملكهم الذى هرب من «المدائن»، واحتشدوا فى جموع هائلة فى «نهاوند»^(٧) تصل إلى نحو مائتى ألف جندي بقيادة «الفيروزان». وكانت سياسة «عمر بن الخطاب» أن يقف بالفتوحات الإسلامية عند حدود «العراق» و«الشام»، ولا يتعداها، حيث قبائل العرب التى نزحت من شبه الجزيرة العربية وأقامت هناك، أما ما وراء ذلك من أرض الفرس والروم فلم يكن للمسلمين مطمع فى غزوه وفتحه، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، فقد حملت حوادث الفتوحات وتطوراتها «عمر بن الخطاب» على تعديل سياسته تجاه الفرس والروم.

ولما وصلت أخبار استعداد الفرس جمع «عمر» كبار الصحابة واستشارهم فى كيفية مواجهة هذا الموقف، فأشاروا عليه بتجهيز جيش لردع الفرس قبل أن ينقضوا على المسلمين فى بلادهم، فعمل بمشورتهم، وجهاز جيشاً قوامه نحو

أربعين ألف مجاهد تحت قيادة «النعمان بن مقرن». ودارت معركة «نهاوند»، وانتهت بنصر عظيم للمسلمين، وهزيمة ساحقة للفرس، وقد سمى المؤرخون المسلمون هذا النصر «فتح الفتوح»، لأن الفرس قد تفرقت كلمتهم، وانفرط عقد دولتهم بهذا النصر.

الإنسياح فى بلاد فارس

كانت معركة «نهاوند» من المعارك الفاصلة فى التاريخ، فقد أزال نهائياً الإمبراطورية الفارسية بعد معركتى «القادسية» و«نهاوند»، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك.

وبعد «نهاوند» عقد «عمر بن الخطاب» العزم على القضاء تماماً على التهديد الفارسى للدولة الإسلامية ودعوتها، فأعد تسعة جيوش فى وقت واحد، لفتح



استكمال فتح الشام

بعد تولى «عمر بن الخطاب» الخلافة عزل «خالد بن الوليد» من قيادة جيوش الشام، وأعاد «أبا عبيدة بن الجراح» إليها، وجعل «خالد» تحت قيادته، وقد قبل القائد البطل هذا التعديل دون تذمر، لأنه كان جندياً يعمل للإسلام لا لمجده الشخصي.



يفتحها، على أن يكون ذلك بعد أن يشتركوا جميعاً فى فتح «دمشق». وبعد أن نجح القادة جميعهم فى فتح «دمشق» وأعطوا أهلها معاهدة صلح بقى «يزيد بن أبى سفيان» أميراً عليها، فى حين اتجه القادة الباقون إلى مناطقهم، وفى خلال عامين فقط تم فتح الشام كله.

وفى سنة (١٥ هـ) جاء «عمر ابن الخطاب» إلى «فلسطين» ليتسلم مفاتيح «بيت المقدس» من البطريرك «صفرونيوس»، وأعطى معاهدة لأهلها هى آية فى التسامح والعدل، أمنهم على عقائدهم وأموالهم وأنفسهم، وأخذت منهم نظير ذلك الجزية لرفضهم الدخول

وإذا كان قد احتل المكان الأعلى بين قادة الفتوحات ببطولاته وانتصاراته، فإنه اعتلى ذروة أعلى بقبوله العزل، وضرب أروع الأمثلة فى الانضباط والطاعة، وتلك أهم صفات القادة العظام.

وكانت تعليمات «عمر» لأبى عبيدة بعد «البرموك»، أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل فى مطلع فتح الشام، حين رتب ذلك «أبو بكر الصديق»، فيسير «أبو عبيدة» ومعه «خالد بن الوليد» إلى «حمص»، و«يزيد بن أبى سفيان» إلى «دمشق»، و«شرحبيل ابن حسنة» إلى «الأردن»، و«عمرو بن العاص» إلى «فلسطين»، وكل قائد يكون أميراً على منطقته التى

وقد رفض «عمر بن الخطاب» أن يصلى فى «كنيسة القيامة»، معللاً ذلك بخوفه أن يأتى من المسلمين من يقول: لقد صلى «عمر» فى الكنيسة فهى من حقنا، وهذا ظلم للمعاهدين لا يقره عمر.

فتح مصر

بعد فتح «بيت المقدس» اتجه «عمر» إلى الشمال ، وعقد في «الجابية» جنوبى «دمشق» مؤتمراً حضره جميع القادة المسلمين، ناقش فيه ماتم إنجازاته والترتيبات اللازمة لإدارة البلاد المفتوحة إدارة حسنة ، والعمل على إشاعة العدل والحرية بين الناس بعد الظلم والاستبداد والاستعباد الذى ذاقوه من الروم .

وفى هذا المؤتمر عرض «عمرو ابن العاص» والى «فلسطين» على «عمر بن الخطاب» ضرورة فتح «مصر» ، لأن فلول قوات الروم فى «الشام» لجأت إلى «مصر» التى كانت فى ذلك الوقت تحت حكم الروم، كما لجأ «الأطربون» قائد قواتهم فى فلسطين إلى «مصر» ؛ ليستعد من جديد للانقضاض على المسلمين فى الشام ، ولذا فإن بقاء «مصر» فى أيدي الروم سيكون خطراً على فتوحات المسلمين فى الشام ، بل قد يصل الخطر إلى شبه الجزيرة العربية نفسها .

ولما اقتنع «عمر بن الخطاب» بما أبداه «عمرو بن العاص» أذن له بالسير إلى «مصر» لفتحها ، فخرج فى أربعة آلاف جندي ، ودخل «العريش» دون قتال ، ثم توجه إلى «الفرما» (مدينة قديمة شرقى «بور سعيد») ففتحها بعد معارك يسيرة مع حاميتها الرومية ، ثم توجه إلى «بلبيس» فى محافظة «الشرقية» الحالية ، فهزم جيشاً رومياً كان يقوده «الأطربون» ، ثم هزم الروم مرة أخرى فى «عين شمس» .



وفى نحو «عامين» (١٩ - ٢١هـ) فتحت «مصر» بأكملها ، وكان فتحاً سهلاً ويسيراً ، لأن القبط لم يشتركوا فى معارك ضد المسلمين ، بل ساعدوهم وقدموا لهم يد العون، فدلوهم على أسير الطرق ، وأمدوهم بالطعام ، تخلّصاً من حكم الروم الذين اضطهدوهم دينياً ، مع أنهم مسيحيون مثلهم ، وأرهقوهم بالضرائب ، واستغلّوهم أبشع استغلال .

ولما تعامل أهل «مصر» مع الفاتحين المسلمين أدركوا أن ما سمعوه كان حقيقة ، فقد منحوهم الحرية الدينية الكاملة ، وأعادوا بطريقتهم «بنيامين» إلى كنيسه بالإسكندرية ، وكان الروم قد

نفوه إلى «وادي السنطون» ، وقد حفظ الرجل هذا العمل الجليل لعمرو بن العاص ، فعاونهم كثيراً فى إدارة «مصر» إدارة حسنة .

وقد أتاح الفتح الإسلامى لمصر جواً من الحرية والتسامح لم تشهده البلاد منذ زمن بعيد ، بنص المعاهدة التى أعطاه «عمرو بن العاص» لأهل «مصر» :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم ، لا يدخل عليهم شئ من ذلك ولا ينتقص ، ولا يساكنهم النوب - أهل النوبة - وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية .. ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب ، فله مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ، على ما فى هذا الكتاب عهد الله ، وذمة رسوله ، وذمة الخليفة أمير المؤمنين ، وذمة المؤمنين» .

وقد عمل المسلمون بوصية رسول الله ﷺ التى أوصاهم فيها بأهل «مصر» خيراً عندما يفتحونها؛ لأن لهم ذمة ورحماً ، كما نصحهم أن يتخذوا منها جنداً كثيفاً ، فأجنداهم من خير أجناد الأرض ، لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة .

عوامل نجاح الفتوحات الإسلامية فى عهد عمر

فى خلال السنوات العشر التى تولى «عمر» فيها الخلافة (١٣ - ٢٣هـ) امتدت حدود الدولة الإسلامية من ولاية «برقة» - فى «ليبيا» حالياً - غرباً إلى نهر «جیحون» شرقاً ، ومن بحر «قزوين» فى الشمال إلى المحيط الهندى فى الجنوب .

وقد حار المؤرخون فى تفسير نجاح هذه الفتوحات ، وتعليل أسبابها ، فقد أذهلهم أن العرب الذين كانوا قبل دخولهم الإسلام قليلي الشأن ، لا حول لهم ولا قوة ، ولا يأبه بهم أحد ولا يحسب لهم حساب ، هم فى سنوات قليلة ينجحون فى إزالة الإمبراطورية الفارسية كلها ، وهى التى وقفت نداً للإغريق والرومان نحو ألف سنة ، وفى فتح الشام ، و«مصر» وهما أعظم ولايات الدولة البيزنطية وأكثرها غنى فى الشرق بعد إنزال هزائم قاسية بجيوشها فى «اليرموك» وغيرها .

وسبب حيرة هؤلاء المؤرخين أنهم يربطون عادة بين الانتصارات والهزائم فى الحروب ، وبين أعداد الجيوش المتحاربة وما معها من عدة وأسلحة ، ولما كان المسلمون أقل عدداً وعتاداً على نحو لا يقارن بما كان عند الفرس والروم ، راحوا يبحثون عن أسباب أخرى غير قضية العدد والأسلحة ، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى .



ذهب بعضهم إلى القول بأن المسلمين واجهوا دولتي الفرس والروم ، وهما في حالة ضعف وانهيار بعد الحروب الطويلة التي دامت بينهما ، وانتصروا عليهما بسهولة وفي وقت قصير . غير أن هذا التفسير بعيد عن الواقع ومخالف للحقيقة ، فالمعارك التي دارت في «القادسية» و«نهاوند» و«اليرموك» لا تؤيد هذا التعليل ؛ لأنها كانت معارك كبيرة ، ولم تكن جيوش الفرس والروم فيها ضعيفة ، وهى لم تهزم أمام المسلمين لضعف قوتها المادية من الرجال والأسلحة ، ولكن لأن معنويات أفرادها كانت منحطة إلى أبعد الحدود ، فى حين كانت معنويات المسلمين عالية ، ويعرفون الهدف الذى يحاربون من أجله ، وكان الموت أحب إليهم من الحياة .

وهذا هو السبب الرئيسى فى انتصاراتهم الذى نسيه الكتاب الغربيون أو تناسوه ، فمنبع هذه القوة وسبب هذا الانقلاب العظيم الذى لا يوجد له مثيل فى التاريخ أن العرب أصبحوا بفضل رسالة الإسلام أصحاب دين ورسالة ، فبعثوا بعثاً جديداً ، وخلقوا من جديد ، وعلموا أن الله قد ابتعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، . . . وعرفوا أن الله قد ضمن لهم النصر ووعدهم الفتح ، فوثقوا بنصر الله ووعد رسوله ، واستهانوا بالقلة والكثرة ، واستخفوا بالمخاوف والأخطار .

وفى ذلك قال المؤرخون : «لما أقبل خالد بن الوليد من العراق ،

ليتولى قيادة الجيوش فى الشام لحرب الروم ، قال رجل من نصارى العرب أمامه : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ، فنهزه خالد ، وقال له : ويحك بل قل : ما أكثر المسلمين وأقل الروم إن الجيوش تكثر بالنصر وتقل بالهزيمة لا بعدد الرجال» .

وهذه الحقيقة عرفها أعداؤهم حتى إن هرقل لما انتهى إليه خبر زحف المسلمين وانتصاراتهم ، قال وكان عندئذ موجوداً فى حمص : «ويحكم إن هؤلاء أهل دين جديد ، وإنهم لا قبل لأحد بهم ، فأطيعونى وصالحوهم على نصف خراج الشام ، ويبقى لكم جبال الروم ، وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام ، وضيقوا عليكم جبال الروم» .



* نتائج الفتوحات الإسلامية وآثارها على العالم :

لقد ترتب على الفتوحات الإسلامية نتائج وآثار بعيدة المدى فى تاريخ العالم ، وإذا ما قورنت بغيرها - مثل فتوحات «الإسكندر» قبلها ، وفتوحات المغول بعدها - فإن تلك المقارنة تظهر عظمة المسلمين ، وأن فتوحاتهم كانت أكثر الفتوحات فى العالم خيراً وبركة ، وفتوحات «الإسكندر» وإمبراطوريته التى شادها فى الشرق انهارت وتمزقت وأصالها بعد وفاته مباشرة ، وأصبحت ذكرى من ذكريات التاريخ ، أما غزوات المغول التى لم يعرف لها تاريخ العالم مثيلاً من قبل فى همجيته ووحشيتها ، فقد دمرت معظم العالم الإسلامى فى الشرق بما كان فيه من حضارة مزدهرة ، ولم يوقف زحفها المدمر سوى الجيش المصرى فى معركة «عين جالوت» سنة (٦٥٨هـ) .

وهذه الغزوات المغولية البربرية كان يمكن أن ينسأها التاريخ أو يذكرها باعتبارها عملاً بربرياً أليماً بالإنسانية فى مسيرتها الطويلة ، لولا أن الله - تعالى - أدرك برحمته الواسعة هذه الجموع الوحشية وهداها إلى دينه ، فأسلم أغلب المغول ، وأظلمهم الإسلام بحضارته ، وحولهم من قوة مدمرة إلى طاقة خيرة ، ومن أعداء

مهاجمين إلى أتباع مدافعين ، بل مشاركين فى صنع الحضارة الإسلامية .
والخلاصة أن كل أرض وصلت إليها الفتوحات الإسلامية انتشر فيها الإسلام بحرية تامة ، ودون إكراه ، وانتشرت اللغة العربية والثقافة الإسلامية ، ولم يتراجع الإسلام عن أية منطقة من العالم وصل إليها سوى «الأندلس» وكان تراجعها لأسباب تعود إلى المسلمين لا إلى الإسلام وعندما تراجع فى «الأندلس» امتد فى مناطق أخرى فى «جنوب شرق آسيا» وفى «أوروبا» و«إفريقيا» بدون حرب أو معارك ، بل عن طريق الدعاة والتجار المسلمين ، مما يدحض كلام من يقول إن الإسلام انتشر بحد السيف . كما يردد أعداء الإسلام فى كتاباتهم .

عمر وإدارة الدولة

تجلت عبقرية «عمر بن الخطاب» أعظم ما تجلت فى ميادين الإدارة ، فقد ضبط نظم الدولة الإسلامية ، وكانت مترامية الأطراف ، وأحكم إدارتها بمقدرة فائقة تثير الدهشة والإعجاب ، فى وقت كانت فيه وسائل الاتصال بطيئة تماماً .
ويصعب على أى باحث أن يحيط بالجوانب الإدارية عند «عمر بن الخطاب» ، ولذا سنتعرض لبعض منها :

* أولاً : عمر واختيار الولاة :

استعان «عمر بن الخطاب» برجال يديرون شئون الولايات البعيدة عنه ، أما القرية منه فكان يديرها بنفسه ، وكان يقول : «ما يحضرنى من أموركم لا ينظر فيه أحد غيرى ، أما ما بعد عنى فسوف أجتهد فى توليته أهل الدين والصلاح والتقوى ، ثم لا أكتفى بذلك ، بل لأبذل من متابعتهم ؛ لأعرف هل يقومون بالعدل بين الناس أم لا؟» .

وكان لعمر بن الخطاب طريقة فى اختيار ولايته ، فلم يكن يستعمل أحداً من أهل بيته ، وقلمما يستعمل كبار الصحابة على الأمصار ، بل استبقاهم معه فى «المدينة» ليعينوه فى شئون الدولة ، ويقدموا له المشورة ، ومن أهم شروط «عمر» فى الولاة :

- القوة والأمانة : والمقصود بالقوة قوة الدين ، وقوة الإرادة والحزم فى الأمور ، ومن أقواله المأثورة : «إنى لأتخرج أن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه» ، ولذا فقد عزل «شرحبيل بن حسنة» عن «الأردن» ، و«عمير بن سعد» عن «حمص» ، وضم ولايتهما إلى «معاوية بن أبى سفيان» ، وكان المعزولان أسبق إسلاماً من «معاوية» وأفضل ، فلما كلمه الناس فى ذلك قال إنه لم يعزلهما عن سخط أو خيانة ، ولكنه كان يريد رجالاً أقوى من الرجل

- الهيبة مع التواضع : أدرك «عمر بن الخطاب» حاجة ولى الأمر إلى الهيبة واحترام الناس ، حتى يستطيع أن يتجاوز الحد لتصبح تسلطاً وتعالياً ، وكان يقول : «أريد رجلاً - أى والياً - إذا كان فى القوم وليس أميرهم ، كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم».

- الرحمة بالناس : كان «عمر» يختار للولاية من اشتهر بالرحمة ولين الجانب وحب الخير للناس ، وحين كان يولى أحداً يكتب له كتاب تولية ، ويشهد عليه بعض الصحابة ، ويشترط عليه ألا يظلم أحداً فى جسده ولا فى ماله ، ومن وصاياه لعماله : «ألا وإنى لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ، ولكن بعثتكم أئمة الهدى ، يهتدى بكم فادعوا على المسلمين حقوقهم ، ولا تضربوهم فتدلوهم ، ولا تغلقوا الأبواب دونهم ، فياكل قلوبهم ضعيفهم ، ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم ، ولا تجهلوا عليهم» .

ثانياً : قواعد العمل بالنسبة إلى العمال والولاية :

لم يكن «عمر» يقنع بحسن اختيار الولاية وفق شروطه ، وإنما كان يحدد لهم أسلوب العمل ، والقواعد التى يسيرون عليها ، إما فى صورة خاصة محددة كما كان يحدث فى عهد الولاية ، وإما فى توجيهات عامة كما فى المؤتمرات

التي كان يعقدها للعمال والولاية ، وبخاصة فى موسم الحج .

ثالثاً : المتابعة :

فطن «عمر بن الخطاب» إلى فاعلية المتابعة ، وأثرها فى حسن سير الإدارة ، ولذا لم يكتف بالتدقيق فى اختيار الولاية ، وإنما وضع عليهم العيون والأرصاد ، يحصون عليهم حركاتهم وسكناتهم ، ويسجلون أعمالهم وينقلونها إلى الخليفة فور وقوعها ، لأنه أدرك أن الخطأ قد يقع بدون قصد ، وأن الانحراف لا يبدأ كبيراً ، وأن كل شيء يمكن وقفه فى أوله قبل استفحاله ، عملاً بالحكمة الخالدة : «الوقاية خير من العلاج» .

رابعاً : سياسة الباب المفتوح :

أدرك «عمر بن الخطاب» أن آفة الإدارة فى كل عصر هى احتجاب

كبار المسؤولين عن أصحاب الحاجات فتضيع مصالح الناس أو تعطل ، ولذا لم يكن يتهاون مع أى أمير أو والٍ يسمع أنه يحتجب عن الناس مهما يكن شأنه ، وحين بلغه أن «سعد بن أبى وقاص» قد بنى بيتاً فى «الكوفة» من طابقين ، وسماه الناس قصر «سعد» ، لأن بقية البيوت كانت من طابق واحد ، وأنه اتخذ لمكانه الذى يباشر منه أعمال الولاية باباً ، أرسل إليه «محمد بن مسلمة الأنصارى» ، وكان مبعوث «عمر» فى المهمات الكبيرة ، وأمره أن يحرق ذلك الباب الذى يحول بين الأمير وبين الناس ، وأن يقدم بسعد معه ، فلما قدم عليه وبخه ولم يقبل اعتذاره بأن داره قريبة من السوق وأنه كان يتضايق من ارتفاع أصوات الناس وجلبتهم ، ثم رده إلى عمله بعيداً أكد عليه ألا يعود إلى مثل هذا أبداً .



خامساً : المؤتمرات العامة :

ابتكر «عمر» عقد المؤتمرات العامة لمناقشة أمور الدولة ، حتى يتيح لأكبر عدد من المسلمين المشاركة فى صنع السياسة والقرار بالحوار والمشاورة ، فاهتدى إلى استثمار مناسبة الحج ، وتجمع الناس فى البلد الحرام ، وقرر أن يحج كل عام ، عدا السنة الأولى من خلافته ، وأن يحج معه كل ولاية الأمصار ، وهناك يدور النقاش والحساب مع الولاية عما صنعوا فى عامهم الذى مضى ، وما ينوون عمله فى العام القادم ، وفوق ذلك تكون تقارير عيونه بين يديه قبل مجىء الولاية ، بحيث تكون أمورهم كلها واضحة ، ولا يستطيع أحد منهم أن ينكر شيئاً ، ولما كانوا يعرفون ذلك فإنهم حرصوا على أن تكون سجلات أعمالهم نظيفة ، فالخليفة لا يتهاون فى حساب المقصر أو من تثبت عليه مخالفة لشرع الله .

سادساً : محاسبة الولاية والأمراء :

دأب «عمر بن الخطاب» على محاسبة كل والٍ مقصر ، أو من يشبه أنه قصر فى عمله ، لا يمنعه من ذلك كون والى كبير القدر أو صاحب سابقة فى الإسلام ، وقلمما نجى والٍ من ولاته من المحاسبة ، وإذا كان الجرم صغيراً يمكن إصلاحه ؛ اكتفى بالتوبيخ ، ورد والى إلى عمله كما فعل مع

«سعد بن أبى وقاص» ، أما إذا كان الجرم كبيراً من وجهة نظره ؛ فإنه يأمر بعزل الأمير على الفور ، ومن أشهر إجراءاته فى هذا المجال : عزله «خالد بن الوليد» حين علم بأنه أعطى «الأشعث بن قيس» عشرة آلاف درهم ، فساورته شكوك فى أن من يعطى عشرة آلاف مرة واحدة لرجل واحد ، كم يكون لديه ؟ فأمر «أبا عبيدة بن الجراح» أمير الأمراء فى الشام بمحاكمة «خالد» ومقاسمته ماله ، فامتل «خالد» لهذا العزل كما امتثل من قبل للعزل الأول عن القيادة العامة .

ولم يكن «عمر» يقصد بهذا التصرف الإساءة إلى «خالد» قط ، وإنما كان يريد أن يعلم الجميع أن الإسلام فوقهم ، وليس هناك استثناء لمخالف ، ولو كان قائداً عظيماً فى مكانة «خالد» .



سابعاً : القدوة الحسنة :

أدرك «عمر» أثر القدوة فى سياسة الناس ، وأن عليه أن يعلم الناس بأعماله قبل أن يعلمهم بأقواله . وكثيراً ما كان يردد للناس قوله : «سأسوكم بالأعمال وليس بالأقوال» . وأن الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله ، فإن رجع الإمام رجعوا .

وكان «عمر» قدوة فى حياته الخاصة ، يعيش كما يعيش عامة الناس دون تميز ، وحين فرضوا له عطاءً (راتباً) من بيت مال المسلمين ، ليعول منه أسرته قدروا له راتباً يمكنه من معيشة رجل من أوسط الناس ، لا أغناهم ولا أفقرهم .

وفوق ذلك هو يشارك المسلمين ويواسيهم إذا أصابهم ضر ، كما حدث فى عام «الرمادة» المشهور سنة (١٨هـ) الذى أصاب الناس فيه مجاعة شديدة فى شبه الجزيرة العربية لقلة الأمطار ، فكان يجلب إليهم الأقوات من الأمصار ، ويأكل مما يأكله الناس ، حتى ساءت صحته ، فنصح به بعض أصحابه بأن يحسن من طعامه ، ليقوى على العمل وإنجاز مصالح المسلمين ، لكنه أجاب بقوله : «كيف يعينى شأن الرعية إذا لم يصبنى ما أصابهم؟» .

ولا شك أن ما عبر عنه الخليفة «عمر» هو مفتاح الحكم الصالح في كل عصر وزمان فيوم يحس الحاكم بإحساس شعبه فسوف يستقيم الحكم، وينصلح حال الرعية، ويوم ينفصل الحاكم عن شعبه، وتكون له حياته الخاصة، فحينئذ يفتح باب الفساد.

وقد حرص «عمر» على أن يجعل من أبنائه وأهله قدوة كذلك، فأخذهم بما أخذ به نفسه، لأنه الناس ينظرون إليهم، وكان يقول لهم إذا عزم على أمر يهم المسلمين: «لقد عزمت على كذا وكذا، أو نهيت الناس عن كذا وكذا، وأقسم بالله لو خالفني أحد منكم لأضاعفن له العقوبة».

بهذه الإجراءات حصن «عمر» نفسه وأولاده وكل من يلوذون به ضد أية انحرافات أو إغراءات، فأطاعه المسلمون وأحبوه سواء أكانوا أمراء أم من عامة الناس، ولم يعرف التاريخ رجلاً بعد رسول

الله ﷺ و«أبى بكر الصديق» أطاعه كبار الأمراء وصغارهم كما أطاعوا «عمر بن الخطاب»، لا لهيبته في عيونهم فحسب، بل للقدوة الحسنة في حياته وانضباطه الشديد، ولهذا كله احتل مكانة عالية في التاريخ الإنساني.

عدل عمر بن الخطاب

لم ترتبط صفة من صفات «عمر» الكثيرة باسمه كما ارتبطت به صفة العدل، فإذا ذكر «عمر» ذكر الناس عدله، الذي كان لا يفرق بين قريب وبعيد، أو كبير وصغير، أو صديق وعدو، والأخبار المتواترة في ذلك أكثر من أن تحصى، ولعل قصته مع «أبى مريم السلولى» قاتل أخيه «زيد» في

معركة «اليمامة» أصدق مثال على تجرده في عدله، وعدم خلطه بين عواطفه ومسئوليته باعتباره حاكماً يُجرى العدل بين الناس.

فحين قابل «عمر» - وهو خليفة - قاتل أخيه بعد أن أسلم، قال له: أنت قاتل «زيد بن الخطاب»؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: والله لا أحبك أبداً، فقال «أبو مريم»: أو تمنعني بذلك حقاً لى، قال: لا. قال: إذا يا أمير المؤمنين إنما يأسى على الحب النساء. يريد أنه مادام لا يظلمه الخليفة فلا يعنيه أحبه أم كرهه، لأن النساء هن اللاتي يأسفن على الحب.

ولا لوم على «عمر» في التعبير عن عواطفه التي لا يملكها تجاه قاتل أخيه، فقد ورد أن النبی ﷺ قال لوحشى قاتل عمه «حمزة بن عبدالمطلب» حين رآه بعدما أسلم: «غيب وجهك عني يا وحشى لا أراك». ولكن للقصّة دلالة على ضبط النفس والتجرد المطلق لعمر ابن الخطاب، فلم يحمله غضبه من قاتل أخيه على ظلمه.

وامتد عدل «عمر» ليشمل كل من يعيش على أرض الإسلام، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، فحين رأى يهودياً يتسول أحزنه ذلك. وأخذ الرجل من يده، وأعطاه معونة عاجلة من بيت الدقيق^(٨)، وأمر له براتب دائم من بيت مال المسلمين.



إحساسه بالمسئولية

بلغ من شدة إحساس «عمر» بالمسئولية أنه لم يكتف بأن يكون مسئولاً عن حياة البشر الذين يعيشون في دولته، بل مسئولاً عن البهائم والدواب أيضاً. وذلك في مقولته الشهيرة: «والله لو أن بغلة عثرت بشط الفرات لكنت مسئولاً عنها أمام الله، لماذا لم أعبد - أسوى - لها الطريق».

وأعمال «عمر» العظيمة من الفتوحات واستكمال بناء الدولة ومؤسساتها لم تشغله عن متابعة أحوال الناس وتفقدتها؛ ليقف على أوجه النقص ليتلافها أولاً بأول، فكان كثير الطواف ليلاً بالمدينة، وسمع ذات ليلة طفلاً يبكي بكاء مستمراً، فسأل عن أمره، فعرف أن أمه منعت عنه الرضاع، لأنه لا يفرض عطاء من بيت المال إلا للأطفال المفقومين، فسانزعج

«عمر»، وأصدر أوامره أن يفرض عطاء لكل مولود في الإسلام، ونادى مناديه: لا تعجلوا فطام أولادكم.

وحوادث «عمر» التي من هذا القبيل كثيرة، وقد يظنها بعض الناس أنها من المبالغات، ولكنها متواترة في المصادر التي أرخت لعمر وعصره، فمن يصدق أن خليفة المسلمين يأخذ امرأته «أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب» ومعها كل ما تحتاج إليه عملية ولادة، لمساعدة امرأة غريبة جاءها المخاض، فيشترك هو معها في الإشراف على ولادتها؛ وصنع الطعام لها، ولما أنجز مهمته، قال لزوج المرأة: «إذا كان الغد فأتنا نأمر لك بما يصلحك»، ففعل الرجل فأجازه وأعطاه.

عمر والقضاء

عندما بويح «أبو بكر» بالخلافة شكى لعمر من كثرة أعبائها وخوفه من عدم النهوض بكل مسئولياتها، فقال له «عمر»: «أنا أكفيك القضاء



وأبو عبيدة يكفيك الأموال»، ومعنى ذلك أن «عمر» كان قاضياً لأبى بكر.

وفي عهد «عمر» اتسعت الدولة، واحتاج كل إقليم إلى قاضٍ، فعين «عمر» القضاة وكان يدقق في اختيارهم، فعين: «شريح بن الحارث الكندي» على قضاء «الكوفة»، و«أبا الدرداء» على قضاء الشام، و«عثمان بن قيس» على قضاء «مصر».

ولم يكن «عمر» في حاجة إلى سن قوانين للقضاة، لأنهم يحكمون طبقاً لكتاب الله وسنة رسوله، ولكنه كان في حاجة إلى تعليمهم كيف يتصرفون حين يلتبس الأمر عليهم، وقد كتب لأحدهم يقول له: «فإن جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم تكن فيه سنة من رسول الله، ولم يتكلم فيه أحد قبلك، فاختر أى الأمرين شئت، إن شئت أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم، وإن شئت أن تأخر فتأخر».

ومن أعظم وصاياه للقضاة وصيته لأبى موسى الأشعري، ومما جاء فيها: «أس - أى سوى بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك - ظلمك - ولا ييأس ضعيف من عدلك، والبينة على من ادعى جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً أو حلل حراماً...».

إصلاحات عمر بن الخطاب وإنشاءاته

لعمري بن الخطاب كثير من الإصلاحات والإنشاءات التي لم يسبق إليها ، وسماها مؤرخو سيرته «أوليات عمر» ، فهو أول من سُمي أمير المؤمنين ، وأول من اتخذ حادث الهجرة مبدأ التاريخ للدولة الإسلامية ، بعد أن استشار في ذلك كبار الصحابة ، وهو أول من اتخذ بيت المال ، وهو يشبه خزانة الدولة ، وأول من مصر الأمصار ، أى بنى مدناً جديدة كالبصرة و«الكوفة» في «العراق» ، و«الفسطاط» - حى مصر القديمة حالياً - فى «مصر» ، وأول من وسع مسجد رسول الله ﷺ ، وأدخل فيه دار «العباس بن عبدالمطلب» ، وفرشه بالحصباء ، أى الحجارة الصغيرة ، وكانوا قبل ذلك يصلون على التراب .

وهو أول من دَوّن الدواوين ، وهى تشبه الوزارات فى الوقت الحاضر ، وقد اقتبس هذا النظام من الفرس والروم ، فأنشأ «ديوان العطاء» ، وكان مختصاً بالعطاء الذى فرضه «عمر» للمسلمين ، وأنشأ «ديوان الجند» - وزارة الدفاع حالياً - و«ديوان الخراج» - وزارة المالية - و«نظام البريد» الذى كان يُستخدم فى أمور الدولة . ومن أعظم اجتهاداته إبقاؤه الأرض المفتوحة فى أيدي أهلها

يزرعونها ، ويدفعون خراجاً -إيجاراً - للدولة ، تنفق منه على الجيش والمرافق العامة ، كما أمر بإعادة مسح الأرض - أى قياسها واختبارها - ووضع الخراج المناسب عليها . حسب جودة الأرض .

وهو أول من قنن الجزية على أهل الذمة ، فوضع على الأغنياء ثمانية وأربعين درهماً للفرد الواحد فى السنة ، وعلى متوسطى الحال أربعة وعشرين درهماً ، وعلى الفقراء القادرين على الكسب اثني عشر درهماً ، وأعفى منها الشيوخ والنساء والأطفال ورجال الدين والعاجزين عن الكسب ، وقد سبق القول إنه فرض للعاجزين عن الكسب من أهل الذمة عطاءً من بيت المال .

وكما ترك «عمر بن الخطاب» الأرض لأهلها يزرعونها ؛ ترك معظم الدواوين - وبخاصة «ديوان الخراج» - فى أيدي أبناء البلاد المفتوحة يزاولونها بلغاتها ؛ لأنها كما يقول العقاد : «ليست من أسرار الدولة ، وليس من الميسور أن ينصرف إليها فتيان العرب عما هو أولى بهم ، وهو فرائض الدفاع والجهاد» .

ولاشك أن ترك تلك الأعمال فى أيدي أبناء البلاد المفتوحة كان مبعث ارتياح لهم ، فاطمأنوا للحكم الإسلامى ، بل أخذوا يعتنقون الإسلام ، ويتعلمون اللغة العربية .

استشهاده

فى يوم الأربعاء الموافق ٢٦ من شهر ذى الحجة سنة ٢٣هـ وبينما «عمر بن الخطاب» يسوّى صفوف المسلمين فى صلاة الفجر كعادته كل يوم ، وبدأ ينوى مكبراً للصلاة ، إذا بأبى لؤلؤة المجوسى يسدّد للخليفة عدة طعنات بخنجر مسموم ، فحطم أمعاءه ، وسقط مغشياً عليه ، واضطرب المسلمون فى الصلاة اضطراباً شديداً من هول المفاجأة ، وأقبلوا على القاتل محاولين القبض عليه ، لكنه أخذ يضرب شمالاً ويميئاً بدون هدى ، فأصاب اثني عشر من الصحابة ، مات ستة منهم ، ثم أناه رجل من خلفه وألقى عليه رداءه وطرحة أرضاً فلما أيقن «أبو لؤلؤة» أنه مقبوض عليه لا محالة ، طعن نفسه بالخنجر الذى طعن به أمير المؤمنين ، ومات على الفور قبل موت الخليفة نفسه ومات معه السر الخفى الذى دفعه إلى هذه الجريمة البشعة .

حمل المسلمون الخليفة إلى بيته ، وظل فاقد الوعي فترة طويلة ، فلما أفاق كان أول سؤال سألته للمسلمين : هل صليت الصبح ؟ قالوا : نعم ، قال : الحمد لله ، لا إسلام لمن ترك الصلاة ، ثم سأل : من الذى قتلنى ؟ قالوا : «أبو لؤلؤة» غلام «المغيرة بن شعبة» . قال : الحمد لله الذى جعل منيتى على يد رجل كافر ، لم يسجد لله سجدة واحدة يحاجنى بها عند الله يوم القيامة .

المؤامرة

كان «أبو لؤلؤة» غلاماً مجوسياً ، أُسرَ فى معركة «نهاوند» ، ووقع من نصيب «المغيرة بن شعبة» ، وكان يجيد حرفاً كثيرة كالحداثة والنجارة ، وكان سيده يتركه يعمل ويأخذ منه درهمين فى اليوم . فاشتكى إلى أمير المؤمنين «عمر» مستكثراً الدرهمين ، فسأله «عمر» عن صناعته ، فأخبره ، فقال : لا أرى ذلك كثيراً ، وكانت تلك المهن رائجة فى ذلك الوقت وتدرّ عليه مالا وفيراً ، فحقدوا العبد المجوسى وعزم على قتله .

هذا هو السبب الظاهر الذى روته كتب التاريخ والسير ، لكنه لا يقنع وحده بارتكاب جريمة خطيرة

كهذه ، فالأمر أكبر من ذلك وأبعد مدى ، ووراء تدبير واسع ومؤامرة محكمة نُسجت خيوطها فى بلاد فارس وكان فيها «أبو لؤلؤة» أداة تنفيذ فحسب ، وكان هو مستعداً بتكوينه للقيام بها ، فقد روى عنه أنه كان كلما رأى أسرى بلاده فى «المدينة» ، يقول : «أكل عمر كبدى» ، لأن «عمر» هو الذى أزال دولة الفرس وأنزل الأكاسرة من على عروشهم .

ولم تكن الجريمة فارسية فقط باشتراك «أبى لؤلؤة» ، و«الهرمزان» الذى كان أميراً فارسياً وأسرَ فى إحدى الحروب وجاء إلى «المدينة» وأظهر الإسلام ، بل كانت يهودية باشتراك «كعب الأحبار» ، ونصرانية باشتراك «جفينة» .



وكان «كعب الأحبار» يهودياً ادعى الإسلام ، جاء إلى «عمر» قبل طعنه بثلاثة أيام ، وقال له : يا أمير المؤمنين اعهد - أى اختر لك خلفاً يعقبك فى الحكم - فإنك ميت بعد ثلاثة أيام ، فتعجب «عمر» وسأله كيف عرفت ذلك ؟ قال : أجده فى التوراة ، فقال «عمر» : يا سبحان الله ! هل تجد «عمر بن الخطاب» مذكوراً فى التوراة ، قال : أجذك بصفتك . لكن «عمر» لم يعط لهذا الحديث اهتماماً ، فهل كان «كعب الأحبار» على علم بما دبره «أبى لؤلؤة» المجوسى وبقية شركائه ؟ يقول الدكتور «هيكل» : «لا بد إذاً أن يكون كعب الأحبار عرف بسر ما كان يجرى ، فوجه النذير إلى «عمر» ، وأغفل «عمر» أمر هذا النذير . . فحدث ما حدث ، ونذير «كعب» وطعنات «أبى لؤلؤة» تدل على أن فى الأمر سرا لم يظهر ساعة ارتكاب الجريمة ؛ لكنه ظهر من بعد .

أما «الهرمزان» و«جفينة» فأمرهما أوضح من أمر «كعب الأحبار» ، واشتراكهما فى الجريمة لا لبس فيه ، فقد شهد «عبدالرحمن بن عوف» أنه رأى الخنجر الذى طعن به «عمر» مع «الهرمزان» و«جفينة» فى اليوم السابق ليوم الجريمة ، وسألهما ماذا يصنعان به ؟ فقالا : نقطع به اللحم ، وشهد «عبدالرحمن بن أبى بكر الصديق» أنه مرَّ فى الليلة التى

خلافة عثمان بن عفان

(٢٤ - ٣٥ هـ)

* نسبه :

هو «عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف»، ولد بعد «عام الفيل» بست سنوات (٥٧٦م)، وأمه «أروى بنت كريب بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس»، فعثمان يلتقى في نسبه من جهة أمه وأبيه مع النبي ﷺ في «عبد مناف».

* صفاته :

القرآن على عهد رسول الله ، ولا مرت بى جمعة منذ أسلمت إلا وأنا أعتق فيها رقبة، فإن لم أجد فيها رقبة أعتقت فى التى تليها رقتين .

* إسلامه :

أسلم «عثمان» مبكراً ، وكان الذى دعاه إلى الإسلام هو «أبو بكر الصديق» ، وجاء به إلى رسول الله ﷺ فأسلم على يديه بعد إسلام «أبي بكر» مباشرة ، ولذا كان يقول : «إنى لرابع أربعة فى الإسلام بعد «أبي بكر» و«خديجة» و«زيد بن حارثة» ، وحرص «عثمان» على إسلامه أشد الحرص ، على الرغم من الضغوط التى تعرض لها ، فعندما علم عمه «الحكم بن أبى العاص» بإسلامه أوثقه بالحبال ، وقال له : «ترغب عن دين آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أدعك حتى تدع ما أنت فيه» فأجابه «عثمان» : «والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه» .

* عثمان مع النبي ﷺ :

جاهد «عثمان بن عفان» منذ أن أسلم مع النبي ﷺ بماله ونفسه، فهاجر الهجرتين : إلى «الحبشة» وإلى «المدينة» ، وصاحبه زوجته «رقية بنت النبي ﷺ» ، وتحمل كثيراً من الأذى .

تفكير عمر

فى أمر الخلافة ووفاته

أيقن «عمر بن الخطاب» بعد طعنه أنه لم يبق من عمره سوى ساعات ، وكذلك أيقن المسلمون ، ولذا ألخوا عليه أن يختار لهم من يخلفه فيهم ، فرشح لهم ستة من الصحابة ، هم بقية العشرة المبشرين بالجنة ، يختارون من بينهم واحداً للخلافة ، ومع أن ابن عمه «سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل» واحد من العشرة المبشرين بالجنة ، فقد استبعده من الترشيح ، خوفاً أن يقع عليه الاختيار لقربته منه ، كما استبعد ابنه «عبدالله» من الترشيح تماماً ، بل رد على من اقترح عليه ترشيحه رداً قاسياً ، إبعاداً لشبهة الورثة عن نظام الحكم الإسلامى ، وجعل الأمر فى يد الأمة تختار الأصلح ليتولى أمرها .

قال «عمر» لهم : «عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ : إنهم من أهل الجنة ، سعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل منهم ، ولست مدخله فيهم ، ولكن الستة ، هم : على بن أبى طالب ، وعثمان



طعن «أبو لؤلؤة» «عمر» فى صبيحتها فى أحد طرق «المدينة» ، فوجد «أبا لؤلؤة» و«الهرمزان» و«جفينة» يتناجون - يتحدثون سرا- فلما طلع عليهم فجأة ، قام «أبو لؤلؤة» مرتبكاً ، فسقط منه الخنجر نفسه الذى طعن به «عمر» .

ومما يؤكد أن قتل «عمر بن الخطاب» كان مؤامرة انتحار «أبي لؤلؤة» نفسه ، فليس هناك رجل يقدم على عمل كهذا من أجل بضعة دراهم ، حتى لو رأى أن «عمر» لم ينصفه ، فقد كان بإمكانه أن يعاود الشكوى ويأخذ حقه ، ولكن العبد المجوسى ملئ حقداً ، وأوعز عليه فأقدم على جريمته إقدام من يؤمن بأنه يقوم بعمل بطولى يستحق أن يدفع من أجله حياته .

وهناك أمر آخر يؤكد المؤامرة ، وأنها نسجت خيوطها فى بلاد فارس نفسها ، وهو ثورة معظم بلاد فارس على المسلمين ، ونقض معاهدات الصلح ، التى وقعها معهم الفاتحون المسلمون ، فور سماعهم خبر مقتل «عمر» ، وكأنهم كانوا ينتظرون ذلك بصبر نافذ ؛ لأنهم ظنوا أن وفاة «عمر» هى فرصتهم لإعادة الأمور إلى ماكانت عليه قبل الفتوحات .

بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبدالرحمن بن عوف ، وطلحة ابن عبيد الله .

واهتم «عمر» وهو فى تلك الحال بأمر دفنه ، وطلب أن يُدفن إلى جوار الرسول ﷺ و«أبى بكر الصديق» - رضى الله عنه - فى بيت «عائشة» ، لينعم بصحبته فى الآخرة كما نعم بها فى الدنيا ، فأرسل ابنه «عبدالله» إلى «عائشة» - رضى الله عنهما - وقال له : قل لها : «عمر» يقرأ عليك السلام ويستأذنك فى أن يُدفن مع صاحبيه ، فأتاها «عبدالله» فوجدها تبكى ، فسلم عليها ، ثم قال لها ما أمره به أبوه ، فقالت : «كنت والله أريده لنفسى - أى المكان - ولأوثرنه به اليوم على نفسى» ، فلما رجع «عبدالله» ، وأخبر أباه أن «عائشة» أذنت له ، تهلل وجهه ، وقال : الحمد لله ماكان شئ أهم إلى من ذلك المضجع .

وفى اليوم التالى لطعنه أى يوم الخميس الموافق ٢٧ من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ فاضت روح «عمر» بعد أن قضى فى الخلافة عشر سنوات وبضعة شهور ، وكُفن فى ثلاثة أثواب أسوة بكفن رسول الله ﷺ ، وصلى عليه «صهيب الرومى» - رضى الله عنه - وكان «عمر» قد أمره أن يصلى بالناس بعد طعنه ، ودُفن مع رسول الله ﷺ و«أبى بكر الصديق» .

كان ربعة من الرجال ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، حسن الوجه أبيض مشرباً بحمرة ، غزير الشعر يكسو ذراعيه شعر طويل ، طويل اللحية ، ومن أحسن الناس ثغراً .

* أخلاقه :

أجمعت المصادر التى أرخت له على وصفه بسماحة النفس ، ورقة المشاعر ، وكان رضى الخلق ، كريماً ، شديد الحياء ، صواماً قواماً ، محبوباً من الناس فى جاهليته وإسلامه .

وتحدث هو عن نفسه فقال : لقد اختبأت لى عند ربى عشرًا ، إنى لرابع أربعة فى الإسلام ، ولقد اتئمتنى رسول الله ﷺ على ابنته - رقية - ثم توفيت ، فزوجنى الأخرى - أم كلثوم - ووالله ما سرقت ولا زنت فى جاهلية ولا إسلام قط ولا تغنيت ، ولا تمنيت ولا مسحت فرجى يمينى منذ بايعت رسول الله ، ولقد جمعت

بذل «عثمان» ماله في سبيل الله ونصرة دعوته ، وكان من أكثر «قريش» مالا ، فاشترى «بئر رومة» باثني عشر ألف درهم ، وجعلها للمسلمين في «المدينة» ، وكانوا يعانون من قلة المياه ، وغلاء أسعارها .

كما أنفق ماله في تجهيز الجيوش وبخاصة جيش العسرة في غزوة «تبوك» في العام التاسع من الهجرة ، فقد جهز وحده ثلث الجيش ، وكان عدده نحو ثلاثين ألفاً ، فدعا له رسول الله ﷺ بخير ، وقال : «ماضر عثمان ما فعل بعد اليوم» ، قالها مرتين :

وشهد «عثمان» المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، عدا غزوة «بدر» ، فقد تخلف عنها بأمر من النبي ﷺ ، وأرسله النبي إلى «مكة» عام «الحديبية» لمفاوضة «قريش» ، بعد اعتذار «عمر بن الخطاب» لرسول الله بقوله : «إني أخشى على نفسي من «قريش» لشدتي عليها وعداوتي إياها ، ولكني أدلك على رجل أمنع وأقوى بها مني ، عثمان بن عفان» .

ولما أشيع أن «قريشاً» قد قتلت «عثمان» ، قال النبي ﷺ : «لو كانوا فعلوها فلن نبرح حتى نناجزهم» ، وبإيعه أصحابه «بيعة الرضوان» تحت الشجرة ، وبإيع النبي نفسه نيابة عن «عثمان» ، وقال : «إن عثمان بن عفان في

حاجة الله وحاجة رسوله» وضرب بإحدى يديه على الأخرى مشيراً إلى أن هذه بيعة «عثمان» ، فكانت يد النبي ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم .

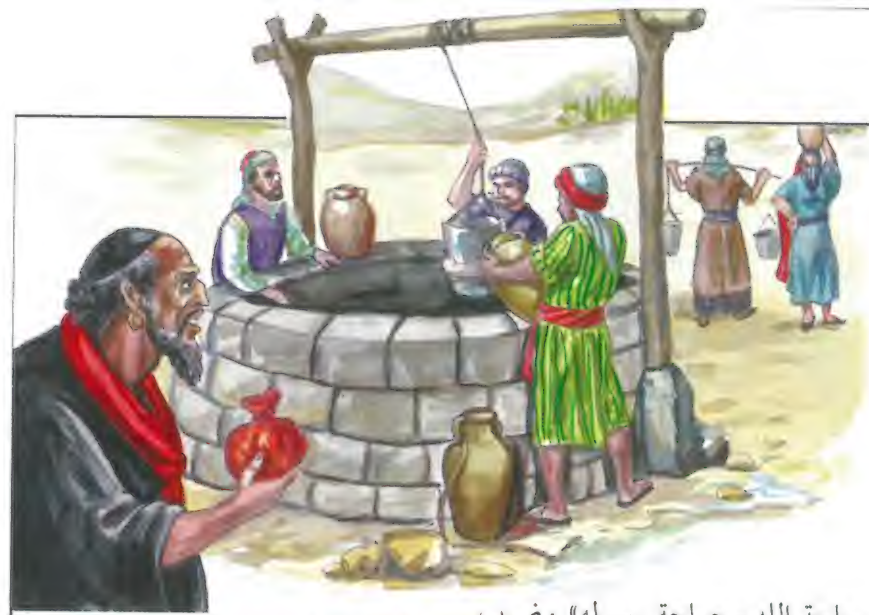
وكان من كتاب الوحي كما هو معلوم .

*** ثناء النبي ﷺ على عثمان :**

الأحاديث الواردة في فضل «عثمان بن عفان» وثناء النبي عليه كثيرة ، من ذلك قوله ﷺ :

«ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟» .

وكان عثمان بن عفان قريباً من الخليفين ، «أبي بكر الصديق» و«عمر بن الخطاب» ، وموضع ثقتهما وأحد أركان حكومتهما ، ومن كبار مستشاريهما ، وكان يكتب لهما ، وهو الذي كتب كتاب ولاية العهد من «أبي بكر» إلى «عمر بن الخطاب» - رضى الله عنهما - وترتيب «عثمان» في الفضل بين الصحابة كترتيبه في تولي الخلافة عند جمهور علماء الأمة .



أهل الشورى وبيعة عثمان

لم يشأ «عمر بن الخطاب» أن يعهد بالخلافة إلى شخص بعينه ، وقال : «إن أعهد - يعني لشخص محدد - فقد أعهد من هو خير مني - يقصد أبا بكر عندما عهد إليه هو نفسه - وإن لم أعهد فلم يعهد من هو خير مني - يقصد رسول الله ﷺ حين تركها شورى بين المسلمين» .

ولعل اجتهاده أداه إلى أن تصرف الرسول و«أبي بكر» يعطى له الفرصة أيضاً أن يختار طريقة أخرى لاختيار من يخلفه ، ليثري بذلك طرق الاختيار ، وليسخ في أذهان الناس أن أمر اختيار الحاكم منوط دائماً بالأمة وإرادتها ورضاهما ، وهي التي تملك محاسبته وعزله إن ارتكب ما يوجب العزل .

رشح «عمر بن الخطاب» ستة من الصحابة ، ليتولى واحد منهم منصب الخلافة ، ولم يأمر أحداً منهم أن يصلى بالناس إماماً ، حتى لا يظن الناس أنه يميل إليه ، بل أمر صهيباً أن يصلى بالناس ،

لتكون فرصتهم في الاختيار متساوية ، وشدد على ألا تمضي ثلاثة أيام بعد وفاته إلا ويكون عليهم أمير من هؤلاء الستة يتولى مسؤولية الخلافة ويتحمل تبعاتها .

وبعد أن فرغ المسلمون من دفن «عمر» ، شرع المرشحون الستة في التفاوض ، وبعد نقاش طويل اقترح عليهم «عبدالرحمن بن عوف» أن يتنازل عن حقه في الخلافة . وتركوا له اختيار الخليفة ، فوافقوا على ذلك ، فشرع في معرفة آرائهم واحداً بعد واحد على انفراد ، فرأى أن الأغلبية تميل إلى «عثمان» ، ثم أخذ يسأل غيرهم من الصحابة ، «فلا يخلو به رجل ذو رأى فيعدل بعثمان» .

اطمأن «عبدالرحمن» إلى أن الأغلبية تترك «عثمان بن عفان» فأعلن ذلك على ملا من الصحابة في مسجد النبي ﷺ ، ولما كان يعلم أن الذي يلي «عثمان» في المنزلة عند الصحابة ، هو «علي ابن أبي طالب» ، الذي مال إليه عدد منهم ، فإنه رأى أن يوضح له أن الأغلبية مع «عثمان» ، فقال له : «أما بعد يا علي ، فإني نظرت في الناس ، فلم أرهم يعدلون بعثمان ، فلا تجعل علي نفسك سبيلاً» - كأنه يحذره من المخالفة - ثم أخذ بيد «عثمان» ، فقال : «نبايعك على سنة الله ورسوله ،

وسنة الخليفين بعده» ، فبايعه «عبدالرحمن» ، وبايعه المهاجرون والأنصار ؛ ولم يتخلف أحد عن بيعته من الصحابة ، وكان ذلك بعد وفاة «عمر» بثلاثة أيام .

* خطبة البيعة :

استقبل «عثمان» بخلافته أول المحرم سنة ٢٤هـ ، وصعد المنبر بعد تمام البيعة ، وخطبهم قائلاً - بعد حمد الله والصلاة على رسوله - :

«إنكم في دار قلعة - أي دار الدنيا - وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه . . . ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تفرنكم الحياة الدنيا ، ولا يفرنكم بالله الغرور ، اعتبروا بما مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يغفل عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها : الذين أثاروها وعمروها ، ومتعوا بها طويلاً ، ألم تلفظهم ؟ ارموا الدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة . . .»

وأول ما يلاحظ على الخطبة الأولى ، التي افتتح بها «عثمان» خلافته ، خلوها من الإشارة إلى المنهج الذي سيسير عليه ، ولعله اكتفى بما قاله لعبدالرحمن بن عوف لحظة البيعة ، من أنه سيعمل بكتاب الله ، وسنة نبيه ، وسيرة الخليفين بعده .

* كتبه إلى العمال والولاة :

كتب «عثمان» - رضى الله عنه - في الأيام الأولى من خلافته عدداً من الكتب إلى الولاة وأمراء الجند ، بل وإلى عامة الناس ، تتضمن نصائحه وإرشاداته ، يقول «الطبري» : أول كتاب كتبه «عثمان» إلى عماله : «أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة - يرعون مصالح الأمة - ولم يتقدم إليهم - أي لم يطلب منهم - أن يكون جباة ، وإن صدر هذه الأمة خلقوا دعاة ، ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا دعاة ، فإن عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء ، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم ، فتعطوهم مالههم ، وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تشوا بالذمة ، فتعطوهم الذي لهم ، وتأخذوهم بالذي عليهم ، ثم العدو الذي تتابون ، فاستفتحوا عليهم بالوفاء» .

وكتب إلى أمراء الأجناد وقادة الجيوش : «أما بعد ، فإنكم حماة المسلمين وذادتهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم يرغب عنا ، بل كان عن ملا منا ، فلا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل ، فيغير الله ما بكم ، ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون ، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه ، والقيام عليه» .

وكتب إلى عمال الخراج المسؤولين عن الشؤون المالية : «أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق ، ولا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق ، وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها .. والوفاء الوفاء ، ولا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فإن الله خصم لمن ظلمهم» .

وكتب إلى عامة الرعية : «أما بعد فإنكم إنما بلغت ما بلغت بالاعتداء والاتباع ، فلا تفتنكم الدنيا عن أمركم ، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع» . وهذه الكتب توضح سياسة «عثمان بن عفان» العامة ، التي كان يتوخى أن يتبعها عماله وولائه في

الفتوحات في عهد عثمان بن عفان

* المسلمون والفرس :

كان «عمر بن الخطاب» قد أمر المسلمين بالانسيحاح في بلاد فارس بعد موقعة «نهاندا» سنة (٢١هـ) وكلمة الانسيحاح من تعبيرات المؤرخين القدماء ، وهي تدل على سهولة الفتح بعد «نهاندا» ؛ إذ لم يلق المسلمون هناك مقاومة تذكر .

وقد نجح قادة الجيوش التي أرسلها «عمر» في فتح المقاطعات الفارسية كههمذان ، و«خراسان» و«أذربيجان» ، و«اصطخر» ، و«أصبهان» ، وكان أمراؤها الفرس قد رأوا عدم جدوى المقاومة ، فسلموا بلادهم على شروط المسلمين ، وقبلوا دفع الجزية ، ووقعت معهم معاهدات ، هي آية في الرحمة والعدل والتسامح ، من ذلك معاهدة «عتبة بن فرقد» لأهل «أذربيجان» :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان : سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها ، وأهل مللها كلهم ، الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ، على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ، ليس على صبي ولا امرأة ولا زمن - مريض - ليس في يديه شيء من الدنيا ، ولا متعبد متخل ليس في يديه شيء من الدنيا لهم ذلك ولن سكن معهم ، وعليهم قرى المسلم من جنود المسلمين يوماً وليلة ودلالته - على الطريق - ومن حشر منهم - أي من يستعان به في خدمات الجيش - في سنة ، وضع عنه جزاء تلك السنة - أي لا يدفع جزية - ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك ، ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه» .

إدارة شؤون الأمة ، وهي سياسة طابعها الرفق بالرعية ، والسهر على مصالحها ، والإنصاف في جمع الخراج ، وإيصال الحقوق إلى أصحابها ، والإحسان إلى أهل الذمة ، ورعاية جميع طوائف الأمة .

وبعد مقتل «عمر» نقضت معظم المقاطعات الفارسية معاهداتها مع المسلمين ، ظنا من أمرائها أن في مقتل «عمر» فرصة لطرد المسلمين من البلاد التي فتحوها ، فوقف «عثمان بن عفان» لهذه الثورة وقضى عليها ، كما فعل «أبو بكر» حيث قمع الردة في شبه الجزيرة العربية ، وأعاد إليها وحدتها الدينية والسياسية ، وأخذ «عثمان» يجهز الجيوش ، ويصدر أوامره إلى أمراء الأمصار : «الوليد بن عقبة» في «الكوفة» ، و«عبدالله بن عامر» في «البصرة» ، للتصدي بحزم لحركة الردة الفارسية ، وإعادة الفرس إلى الطاعة والنظام .

وكانت إعادة فتح تلك المقاطعات أصعب من فتحها الأول في عهد «عمر بن الخطاب» ؛ لأنها حينذاك سلمت بدون قتال تقريباً بعد هزيمتهم في «نهاندا» في حين

بذل المسلمون في عهد «عثمان» جهداً كبيراً ، وخاضوا معارك شرسة في بضع سنوات (٢٤ - ٣١هـ) لإعادة فتح بلاد فارس مرة أخرى ، وقد شهدت تلك المعارك الفصل الأخير من حياة آخر ملوك «آل ساسان» «يزدجرد الثالث» ، حيث لقي مصرعه على يد رجل فارسي في «مرو» سنة (٣١هـ) ، وبموته طويت صفحة دولة فارس من التاريخ .

وما يجدر ذكره ويشير الإعجاب أن المسلمين لم يقسوا على الفرس ولم ينكلوا بهم بعد ثورتهم وخروجهم ، بل قبلوا اعتذارهم ، ولم يفرضوا عليهم التزامات جديدة ، واستمروا في معاملتهم طبقاً للمعاهدات الأولى .

وبدأت بلاد فارس تشهد تاريخاً جديداً تحت راية الإسلام ، يملؤه العدل والتسامح والرحمة ، وأسلمت الأمة الفارسية ، وأصبحت جزءاً مهماً من العالم الإسلامي وأسهمت إسهاماً كبيراً في بناء الحضارة الإسلامية .

* المسلمون والروم في عهد عثمان :

بعد وفاة «عمر بن الخطاب» ، قام الروم بمحاولة لطرد المسلمين ، فهاجموا الشام - في السنة الأولى من خلافة «عثمان» بقوات كبيرة من آسيا الصغرى ، جعلت والي الشام القدير «معاوية بن أبي سفيان»

يطلب المدد من «عثمان بن عفان» ، الذي أمر بتحريك قوات من «العراق» لنجدة الشام .

وكتب «عثمان بن عفان» إلى والي «الكوفة» «الوليد بن عقبة» كتاباً يقول فيه : «أما بعد فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إلي يخبرني أن الروم قد أجلبت على المسلمين بجموع عظيمة - أي هاجمت - وقد رأيت أن يدمهم إخوانهم من أهل الكوفة ، فإن أتاك كتابي هذا ، فابعث رجلاً ممن ترضى نجدة وبأسه وشجاعته وإسلامه ، في ثمانية آلاف ، أو تسعة آلاف ، أو عشرة آلاف ، إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولاً ، والسلام» .

ولما بلغ الكتاب والي «الكوفة» جمع الناس وخطب فيهم وأبلغهم أمر الخليفة ، وقال : «قد كتب إلي أمير المؤمنين يأمرني أن أندب منكم ما بين العشرة الآلاف إلى الثمانية الآلاف ، تمدون إخوانكم من أهل الشام ، فإنهم قد جاشت عليهم الروم ، وفي ذلك الأجر العظيم والفضل المبين ، فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهلي ، فانتدب الناس ، فلم يمض ثلاثة -

أي ثلاثة أيام - حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة ، فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم ، وعلى جند أهل الشام «حبيب بن مسلمة بن خالد الفهري» ، وعلى جند أهل الكوفة «سلمان بن ربيعة» فشنوا الغارات على أرض الروم ، فأصاب الناس ماشاءوا من سبي ، وملئوا أيديهم من المغنم ، وافتتحوا بها حصوناً كثيرة» .

* محاولات الروم العودة إلى مصر :

لم يكف الروم عن محاولاتهم الهجوم على المسلمين ، على الرغم من هزيمتهم في الشام ، وما إن اعتلى الإمبراطور «قنسطانز الثاني» (٢٢ - ٤٨هـ = ٦٤٢ - ٦٦٨م) حتى سيطرت عليه فكرة استرداد الشام و«مصر» من أيدي المسلمين ، كما استردها جده «هرقل» من الفرس قبل سنوات قليلة من الفتح الإسلامي ، فأرسل في سنة (٢٥هـ = ٦٤٥) حملة بحرية كبيرة إلى «مصر» ، بقيادة «مانويل» ، تمكنت من الاستيلاء على «الإسكندرية» ، بمساندة من بقي فيها من الروم والإغريق ،



نشأة الأسطول الإسلامي

يُعد إنشاء الأسطول الحربي الإسلامي من أعظم الإنجازات التي تمت في عهد أمير المؤمنين «عثمان ابن عفان» فبعد الفتوحات الإسلامية في «مصر» و«الشام» وجد المسلمون أنفسهم قد سيطروا على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط ، الذي كان يُعرف وقتئذٍ ببحر الروم ، لأن سيطرتهم عليه كانت كاملة ، ولم تنازعهم في ذلك دولة أخرى ؛ ولذا كان المسلمون في حاجة إلى قوة بحرية تمكنهم من الحفاظ على شواطئهم ضد هجمات الأسطول البيزنطي .

وكان أول من تنبه إلى ذلك «معاوية بن أبي سفيان» والي الشام ؛ لأنه اضطلع بفتح سواحل الشام ، مثل : «صور» ، و«عكا» ، و«صيدا» ، و«بيروت» منذ عهد الخلفيتين «أبي بكر الصديق» و«عمر بن الخطاب» ، وواجه صعوبات كثيرة في فتح تلك المدن ، لقوة تحصينها من ناحية ، وتوالي الإمدادات التي تأتيها من البحر من ناحية أخرى ، كما أنها كانت محطات للأساطيل البيزنطية .

ولما أدرك «معاوية» أنه بدون قوة بحرية إسلامية فلن يتمكن من الدفاع عن كل الساحل الشامي ، فعرض الأمر على الخليفة «عمر بن الخطاب» ، مصوراً له حجم الخطر



مدداً ، يضم عدداً من الصحابة كابن عباس ، و«عبد الله بن الزبير» - رضى الله عنهما .

وفي سنة (٢٧هـ = ٦٤٧م) انطلق جيش المسلمين بقيادة «عبد الله بن سعد» ، وتوغل غرباً حتى وصل إلى «قرطاجنة» عاصمة إقليم «تونس» في ذلك الوقت ، ودارت عدة معارك بين المسلمين وبين ملكها «جرجوار» أو «جرجير» كما تسميه المصادر العربية ، انتهت بانتصار المسلمين وقتل الملك «جرجوار» على يد «عبد الله بن الزبير» .

ولم تكن تلك الحملة تهدف إلى الاستقرار ، بل إلى ردع العدوان ، ولذا اكتفى «عبد الله بن سعد» بعقد معاهدات صلح مع زعماء تلك البلاد تعهدوا فيها بدفع مبلغ كبير . وبعد عودة «عبد الله بن سعد» إلى «مصر» ، قام بفتح بلاد النوبة جنوباً سنة (٣١هـ = ٦٥١م) ، وعلى الرغم من أنها لم تخضع بلاد «النوبة» للمسلمين ، فإنها انتهت بعقد صلح بين الطرفين ، اتفقا فيه على تبادل التجارة والمنافع .

وبدأت تتوغل جنوباً قاصدة «حصن بابليون» ، فكلّف الخليفة «عثمان» قائده «عمرو بن العاص» بمهمة الدفاع عن «مصر» وطرد الروم ، وكان «عمرو» قد أعفى من ولايتها بناء على طلبه في مطلع خلافة «عثمان» ، فلم يتردد الفاتح الكبير في العودة إلى «مصر» للقيام بهذه المهمة ، ونجح في طرد الروم نهائياً ، بعد أن ألحق بهم هزيمة منكرة ، وقتل «مانويل» قائد حملتهم .

* استمرار فتح شمال إفريقيا في عهد عثمان :

لما ولي «عبد الله بن سعد بن أبي السرح» ولاية «مصر» من قبل «عثمان بن عفان» ؛ كتب إليه أن الروم الذين لا يزالون يسيطرون على «شمال إفريقيا» يغيرون على حدود «مصر» الغربية ، ولا بد من مواجهتهم قبل أن يتجرءوا ويهاجموا «مصر» نفسها ، فافتتح «عثمان» بعد أن استشار كبار الصحابة ، وأذن له بتجريد حملات عسكرية لردعهم وكف عدوانهم ، كما أرسل إليه جيشاً من «المدينة»

المسلمين عنده مقدمة على أي شيء آخر ، وطلب من «معاوية» أن يستعيز عن ذلك بتقوية حصون السواحل ، فامثل «معاوية» ، لكنه لم يفقد الأمل في تحقيق ما يصبو إليه .

* بناء الأسطول :

بادر «معاوية بن أبي سفيان» بعد تولي «عثمان بن عفان» الخلافة سنة (٢٤هـ) إلى عرض مشروعه القديم عليه ، الذي يقضى بإنشاء أسطول بحري ، لكن «عثمان» رفض في البداية ، وذكره بمآدار بينه وبين «عمر بن الخطاب» في ذلك الشأن ، وأنه حريص على سلامة المسلمين كحرص «عمر» من قبل لكن «معاوية» ألح عليه إلحاحاً شديداً ،

وكان أجراً عليه من «عمر» ، ولم يكف عن المحاولة حتى ظفر منه بالإذن ، وكان إذناً مشروطاً ، ألا يُكره أحداً من الجنود على العمل في الأسطول .

بدأ «معاوية بن أبي سفيان» يعمل على الفور في بناء الأسطول ، متعاوناً مع «عبد الله بن سعد بن أبي السرح» ، والي «مصر» ، ومستثمراً كل الإمكانيات المتاحة والصالحة لصناعة السفن في «مصر» والشام ، حيث كانت في «مصر» دور قديمة لصناعة السفن ، وعدد كبير من العمال المهرة المدربين ، وأشجار «السنط» التي تصلح لعمل الصواري وضلوع السفن ، وكانت الشام تتمتع بكثير من المواد اللازمة مثل أخشاب «الصنوبر» و«البلوط» و«العرعر» ، وأدى هذا التعاون بين «مصر» والشام إلى بروز الأسطول الإسلامي وظهوره .



* فتح جزيرة قبرص سنة (٢٨هـ):

كان أول عمل بحرى ناجح قام به الأسطول الإسلامى ، هو فتح «جزيرة قبرص» التى كانت تهدد شواطئ المسلمين باستمرار لقربها منها من ناحية ، وباعتبارها محطة مهمة من محطات الأساطيل البيزنطية من ناحية أخرى .

وقد غزاها «معاوية» سنة (٢٨هـ)، أى بعد أربع سنوات فقط من بناء الأسطول الإسلامى ، وهى مدة ليست بالطويلة لإنشاء أسطول بحرى ، ولكنها عزيمة الرجال وإصرارهم على إنجاز العمل .

وكانت الغزوة مشتركة أسهمت فيها قوات الشام ، وقوات «مصر» بقيادة «عبدالله بن سعد» ، ونزلوا «قبرص» واستولوا عليها ، فعرض أهلها الصلح ، فقبل «معاوية» ، واشترط لعقده عدة شروط :

- أن يدفع أهل «قبرص» جزية سنوية ، مقدارها سبعة آلاف دينار .
- وأن يُعلموا المسلمين بأية تحركات عدائية من جانب الروم ضد سواحلهم .

- وأن يقف أهل «قبرص» على الحياد ، إذا نشبت حرب بين المسلمين والروم ، ولكن لا يمنعون المسلمين من المرور بجزيرتهم إذا احتاجوا إلى ذلك .

ولم يلتزم أهل «قبرص» بما تعاهدوا عليه فى الصلح ، مما جعل «معاوية» يعاود غزو الجزيرة مرة أخرى سنة (٣٣هـ) ويضمها إلى دولة الخلافة ، وينقل إليها اثني عشر ألفاً من المسلمين من أهل الشام ، وأسكنهم فيها ، وبنى لهم الدور والمساجد .

* موقعة ذات الصواري سنة (٣٤هـ):

أثار بروز الأسطول الإسلامى فى البحر المتوسط حفيظة «قنسطانز الثانى» الإمبراطور البيزنطى ، وجعله يفكر فى القضاء على الأسطول الإسلامى وتحطيمه ، قبل أن تكتمل قوته ، ويزداد خطره ،

وحتى تظل السيطرة على «البحر المتوسط» للأسطول البيزنطى وحده دون غيره ، فعبأ الإمبراطور قواته البحرية كلها ، واتجه بها قاصداً سواحل الشام ، وهو لا يراوده شك فى قدرته على تدمير السفن الإسلامية ؛ لحداثة نشأتها ، وقلة خبرة رجالها ، لكن المسلمين استعدوا لهذا اللقاء جيداً وتعاون الأسطولان فى «مصر» والشام ، لرد هذا العدوان ، وأسندت قيادتهما إلى «عبدالله بن سعد» والى «مصر» .

والتقى الأسطولان الإسلامى والبيزنطى - الذى كان بقيادة

الإمبراطور نفسه - فى شرقى «البحر المتوسط» ، جنوبى شاطئ «آسيا الصغرى» (تركيا الحالية) ، ودارت بينهما معركة بحرية كبيرة ، سُميت بمعركة «ذات الصواري» ، لكثرة السفن التى اشتركت من الجانبين (خمسمائة سفينة من جانب الروم ، مقابل مائتى سفينة من جانب المسلمين) وانتهت المعركة بنصر عظيم للمسلمين ، وهزيمة ساحقة للأسطول البيزنطى ، ونجاة الإمبراطور من القتل بأعجوبة .

ونتيجة لهذه الهزيمة لم يرجع الإمبراطور إلى عاصمة «القسطنطينية» بعد المعركة ، وإنما ذهب إلى «جزيرة صقلية» ، قبالة شاطئ «تونس» ، فى محاولة منه لحماية ما تبقى من دولة الروم فى «شمال إفريقيا» ، لكنه قتل فى «صقلية» سنة (٦٨٨م) .

مصحف عثمان

إذا كان لعهد «عثمان بن عفان» - رضى الله عنه - أن يفخر بما أنجز فيه من الأعمال العظيمة ؛ فإن له أن يفخر بما هو أعظم منها جميعاً ، وهو جمع القرآن الكريم على لغة واحدة .

للقرآن صورتان : صورة صوتية مقروءة ، وأخرى مكتوبة مدونة ، وقد حرص الرسول ﷺ على تدوين الآيات فور نزولها ، وقبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى راجع مع

«جبريل» - عليه السلام - ترتيب الآيات والسور مرتين .

وقد حفظ الصحابة القرآن باللهجات التى درجوا عليها ، وأجاز لهم النبى ﷺ ذلك ، ولذا ظهر الاختلاف فى وجوه القراءة بين الصحابة من بدء نزول القرآن ، نتيجة للهجة التى اعتادها اللسان .

ولما جُمع القرآن الكريم الجمع الأول فى الصحف فى عهد «أبى بكر» بهيئته المكتوبة ، بقيت الصورة الصوتية كما هى ، ولما فُتحت البلاد وتفرق الصحابة فيها ، أخذ أهل كل إقليم يقرءون القرآن بقراءة الصحابى أو الصحابة الذين عاشوا بينهم ، فتمسك أهل «الكوفة» بقراءة «عبدالله بن مسعود» ، وأهل الشام بقراءة «أبى بن كعب» ، وأهل «البصرة» بقراءة «أبى موسى الأشعرى» ، ومع اتساع الفتوحات ، زاد الخلاف بين المسلمين حول قراءة القرآن ، وتحول الأمر إلى تعصب ، بل كاد أن يؤدى إلى فتنة بينهم ، مما أفرع «حذيفة بن اليمان» الصحابى الجليل ، وكان يقرأ فى «أذربيجان» ، فرجع إلى «المدينة» ، وأخبر «عثمان بن عفان» بما رأى .

جمع «عثمان» الصحابة ، وأخبرهم الخبر ، فأعظموه ، ورأوا جميعاً ما رأى «حذيفة» من ضرورة جمع الناس على مصحف واحد ،



وأرسل «عثمان» إلى أم المؤمنين «حفصة بنت عمر» أن تبعث إليه بالمصحف الذي جُمع في عهد «أبي بكر» - وكان «عمر بن الخطاب» قد أخذه بعد وفاة «أبي بكر» ، ثم حُفظ بعد موته عند ابنته «حفصة» - ثم أمر «زيد بن ثابت» - الذي جمع القرآن الجمع الأول في عهد «أبي بكر الصديق» - و«عبدالله بن الزبير» ، و«سعيد بن العاص» ، و«عبدالرحمن بن الحارث بن هشام» أن ينسخوه ، وقال لهم: إذا اختلفتم - يعنى فى كلمة أو كلمات - فاكتبوها بلسان «قريش» ، فإنما نزل بلسانهم ، فلما نسخوه ، أرسل إلى كل إقليم مصحفاً وأمر بإحراق ما سوى ذلك ، وقد سمي هذا المصحف بالمصحف الإمام أو

الفتنة وأسبابها

سارت الأمور فى الدولة الإسلامية على خير ما يرام فى الشطر الأول من خلافة «عثمان» - رضى الله عنه - (٢٤ - ٣٠هـ) ، ولكن مع بداية سنة (٣١هـ) هبت على الأمة الإسلامية رياح فتنة عاتية ، زلزلت أركانها ، وكلفتها تضحيات جسيمة ، واستمرت هذه الفتنة نحو عشر سنين ، شملت ما تبقى من خلافة «عثمان بن عفان» ، وكل زمن خلافة «على بن أبى طالب» - رضى الله عنهما - (٣١ - ٤٠هـ) . وما لاشك فيه أن تلك الفتنة كانت نتيجة لمؤامرة واسعة النطاق كانت أحكم فى تدبيرها ، وأوسع فى أهدافها ، وأخطر فى نتائجها من مؤامرة اغتيال «عمر بن الخطاب» -

رضى الله عنه - ، لأن اغتيال «عمر» لم يخلف أثراً خطيرة بين المسلمين ، ولم يقسمهم شيعاً

وأحزاباً كما حدث فى آخر عهد «عثمان» ، ولأن الذين خططوا لقتل «عمر» والذين قاموا بتنفيذ ذلك كانوا غير مسلمين وغير عرب ، فى حين أن الذين قتلوا «عثمان» و«علياً» من بعده كانوا عرباً مسلمين ، وهذا هو وجه الخطورة ، حتى وإن كان التخطيط من غيرهم .

والذى لاشك فيه أن الذى تولى التخطيط للفتنة ، وقتل «عثمان» ، وإغراق الأمة فى بحر من الدماء ، هو «عبد الله بن سبأ» اليهودى ، الذى ادعى الإسلام ؛ ليتمكن من الكيد له من داخله ، والذى لُقّب بابن السوداء .

وقبل الحديث عنه يحسن تناول الظروف والأجواء التى كانت سائدة فى عهد «عثمان» - رضى الله عنه - واستغلها «ابن سبأ» لتحقيق أهدافه المدمرة :

* أولاً : تغيرت الظروف فى آخر حياة «عثمان» بل وفى بداية خلافته عما كانت عليه فى خلافة «عمر بن الخطاب» ، وربما كان هذا تطوراً طبيعياً فى حياة الأمة ، فقد كثرت الغنائم فى أيدي الناس ، وبدءوا يتوسعون فى المأكّل والملبس والمشرب ، وبخاصة الجيل الجديد من العرب الذى دخل فى الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ ، ولم يتأدّب بأدابه ، ولم يتعود حياة القناعة والقصْد فى المعيشة التى كان يحياها الصحابة فى حياته ﷺ .

ولم يُرض ذلك التوسع فى المعيشة صحابياً جليلاً اشتهر بالزهد ، هو «أبو ذر الغفارى» ، فسخط على «عثمان» وولائه وعماله ، وحملهم مسؤولية ذلك التطور الاجتماعى الطبيعى الذى لم يكن من صنعهم ، وراح ينادى بتحريم امتلاك المسلم لشيء من المال فوق حاجة يومه وليلته ، واستشهد على ذلك بقوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

[التوبة : ٣٤]

ولم يوافق أحد من الصحابة «أبا ذر» فيما نادى به ، وكانوا يرون أن المال إذا جُمع من حلال ، وأدى عنه صاحبه حق الله وهو الزكاة : لا يعتبر كنزاً ، ولا تنطبق عليه الآية موضع الاستشهاد ، والنبي ﷺ كان يخزن مؤنة بيوته لمدة سنة إذا كانت الظروف تسمح بذلك ، وتشريع الله للموارث فى نظام دقيق يقتضى ترك الميت ثروة تقسم بين ورثته ، وكثير من الصحابة كانوا أغنياء على عهد النبي ﷺ ، ولم يعب النبي ﷺ ثراءهم ، بل يُروى أنه قال :

«نعم المال الصالح للمرء الصالح» .

[مسند أحمد] .

وقد نصح النبي ﷺ «سعد بن

أبى وقاص» حين أراد أن يتصدق بماله كله بقوله :

«إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفّفون الناس» .

[صحيح البخارى ، كتاب الجنائز]

ولو أن «أبا ذر الغفارى» - رضى الله عنه - احتفظ برأيه لنفسه ، لكان الأمر هيناً ، ولكنه أذاعه فى الناس ؛ ووجد صدهاء عند الكسالى والذين يريدون أن يعيشوا عالة على غيرهم ، فألبوا الناس على «عثمان» وولائه ، وكانت تلك الدعوة سبباً من أسباب الفتنة .

وعلى الرغم من اعتزال «أبى ذر» الناس فى الربذة «شرقى المدينة» امثالاً للخليفة ؛ فإن دعوته كانت قد استشرت ، وتلقفها «ابن سبأ» اليهودى وأشعلها بين الناس .

* ثانياً : شارك عدد كبير من أهل «اليمن» ومنطقة «الخليج» فى الفتوحات الإسلامية ، وكان دورهم فى تحقيق النصر لا ينكر ، ولكنهم وجدوا بعد الفتح أن الإمارات والوظائف الرئيسية قد أُسندت إلى غيرهم وبخاصة أبناء «قريش» ، وكبار المهاجرين والأنصار وأبنائهم ، فلم يعجبهم ذلك ، ورأوا أنفسهم أحق بالإمارات التى فتحوها بسيوفهم ، مع أنه كان من الضرورى أن يتولى المهاجرون والأنصار هذه الولايات ؛ لأنهم يعرفون الإسلام وشرائعه

أكثر ، فقدمهم علمهم وفقههم فى الدين وسابقتهم فى الإسلام ، وجهادهم مع رسول الله ﷺ لا أنسابهم وأحسابهم .

ونتيجة لذلك تكونت جبهة عريضة من أبناء تلك المنطقة معارضة لسيطرة أبناء المهاجرين والأنصار على الدولة الإسلامية ، ولم تكن شكواهم من الولاة واتهامهم بالظلم حقيقية ، بل كانت ذريعة لليل منهم ، ومن خليفة «عثمان» ، وهدفاً لقلب الدولة وتغيير نظام الحكم المتهم بالظلم ، وهؤلاء كانوا صيداً سميئاً لابن سبأ فاستغل السخط الذى ملأ قلوبهم لتحقيق هدفه الشرير .

* ثالثاً : عندما بدأت هذه الفتنة كان معظم ولاة الأقاليم من «قريش» ، بل من «بنى أمية» أهل «عثمان» ، وأقربائه ، مما سهل على «ابن سبأ» مهمته فى إشعال نار الفتنة ، والحق أن هؤلاء الولاة ، وهم «معاوية بن أبى سفيان» والى الشام ، و«عبدالله بن سعد ابن أبى السرح» والى «مصر» ، و«عبدالله بن عامر» والى «البصرة» ، و«الوليد بن عقبة» والى «الكوفة» ، كانوا من خيرة الولاة ، ومن أسهموا فى تثبيت الفتوحات الإسلامية بعد استشهاد «عمر» ، ومن مارسوا الحكم قبل خلافة «عثمان» ، بل إن «معاوية بن أبى سفيان» كان والياً على الشام من عهد «أبى بكر الصديق» .



ومن ثم لم يؤلفهم «عثمان» لهوى في نفسه، أو لأنهم من أقربائه، بل ولاهم لكفائيتهم ومقدرتهم الإدارية.

ومما يؤسف له أن بعض الكتاب الكبار صوروا الأمر على غير ما تقتضيه الحقيقة التاريخية، وكأن «عثمان بن عفان» أتى بهؤلاء الولاة من قارعة الطريق، وعينهم على الولايات الكبيرة، وحملهم على رقاب الناس؛ لأنهم أقرباؤه فحسب. ويذهب بعضهم إلى تصوير أمر استعفاء «عمرو بن العاص» من إمارة «مصر» بناء على طلبه على أنه عزل من «عثمان» ليعين مكانه أخاه من الرضاعة «عبدالله بن سعد»، ولا يذكر شيئاً مما يعرضه مؤرخو «مصر» الإسلامية كابن عبدالحكم و«الكندي»، من أن «عبدالله بن سعد» كان والياً على صعيد «مصر» من قبل «عمر بن الخطاب»، فلما تولى «عثمان بن عفان» الخلافة طلب منه «عمرو بن العاص» أن يخصه وحده بإمارة «مصر» كلها، فرفض «عثمان»، فاعتزل «عمرو» الولاية بناء على طلبه، ولم يعزله «عثمان بن عفان».

*** رابعاً:** أن من أبناء البلاد المفتوحة وبخاصة بلاد فارس، من لم يسترح إلى سيادة العرب عليهم، وسيطرتهم على بلادهم، وهم الذين كانوا بالأمس

يحتقرونهم وينظرون إليهم في استعلاء، فعز على أنفسهم ذلك، فلم يتركوا فرصة لزعزعة الدولة الإسلامية إلا وانتهزوها، خاصة من لم يتمكن الإسلام في قلوبهم منهم، وهؤلاء كان لهم دور في إثارة الفتنة على «عثمان»، واستمر حتى آخر العصر الأموي.

*** خامساً:** أن كل ما تقدم كان يمكن تداركه وعلاجه، بل إن «عثمان» - رضى الله عنه - حاول إجابة كل مطالب الثائرين عليه والمؤيدين للناس ضده، لكنهم لم يقتنعوا؛ لأن الخليفة لان معهم وحلم عليهم أكثر مما كان ينبغي، ولو أخذهم بالشدة والحزم كما كان يفعل «عمر بن الخطاب» مع أمثالهم لارتدعوا، ولحُسمت الفتنة.

*** عبدالله بن سبأ:**

هو رجل يهودى من «صنعاء» ادعى الإسلام في عهد «عثمان»، وأخذ يبيث في المسلمين أفكاراً غريبة وبعيدة عن الإسلام، مثل قوله بالوصية أى أن «على بن أبى طالب»، هو وصى النبى ﷺ وخليفته من بعده، ومعنى ذلك أن الخلفاء الثلاثة، «أبا بكر» و«عمر» و«عثمان» اغتصبوا حق «على» فى الخلافة.

وبدأ «ابن سبأ» من هذه النقطة، مستغلاً كل الأطراف التى سبق الحديث عنها، ووضع للثائرين

والناقمين على اختلاف مشاربهم وأهدافهم خطة للتحرك ضد الخليفة وولاته، وأشار عليهم بالنيل من الولاة أولاً؛ لما كان يعرف أن «عثمان» نفسه فوق الشبهات، حتى إذا نجحوا فى تشويه سمعة الولاة، انتقلوا إلى «عثمان» باعتباره المسئول الأول عنهم، ومما قاله لاتباعه:

«إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصى رسول الله - يقصد علياً - فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه، وابدعوا بالطعن فى أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، تستميلوا الناس».

أخذ «ابن سبأ» يتنقل بهذا التدبير الشيطاني بين الأقاليم من «البصرة» إلى «الكوفة» إلى «الشام» إلى «مصر»، يبيث أفكاره وسمومه، وكانت خطته بالغة الإحكام، جعلت أتباعه ينجحون فى زرع الشكوك فى نفوس الصحابة فى «المدينة»، مثل «على بن أبى طالب»، و«الزبير بن العوام»، و«طلحة بن عبيد الله»، والسيدة «عائشة» - رضى الله عنها - وهؤلاء كلهم كانت تصلهم معلومات كاذبة عن ظلم ولاة الأقاليم، لكنهم صدقوها للأسف، ولم يتبينوا كذبها إلا بعد فوات الأوان، وبعد أن وقعت الواقعة، وقتل الخليفة الثالث مظلوماً.

*** موقف عثمان من الفتنة:**

لما سمع «عثمان بن عفان» ما يقال عن ولاة أقاليمه جمع أهل «المدينة»، وقال لهم: أشيروا على، فأشاروا عليه أن يرسل رجالاً إلى الأقاليم للتحقيق فيما وصله من كلام عنهم، كما كان يفعل «عمر بن الخطاب»، فاستجاب على الفور، وحدد أربعة من الصحابة من غير «بنى أمية» - حتى لا يتهمهم أحد بالتحيز للولاة - للقيام بما كلفهم به، فأرسل «محمد بن مسلمة» إلى «الكوفة»، و«أسامة بن زيد» إلى «البصرة»، و«عبدالله بن عمر» إلى «الشام»، و«عمار بن ياسر» إلى «مصر»، وعاد الثلاثة الأول إلى «المدينة»، وقدموا تقارير للخليفة بأن الأمور تجري على خير وجه، وأن الشكاوى التى تصل إلى «المدينة» كلها باطلة، ولا أساس لها من الصحة؛ وأن الولاة يقومون بعملهم خير قيام، أما «عمار بن ياسر» فلم يعد من «مصر»، لأنه لما وصل إليها، تصادف وجود «ابن سبأ» فيها، فاستقطبه للأسف وضمه إلى صفه، مما جعل الأمر يستفحل ويزداد خطراً.

وبعد أن تبين بطلان مزاعم أتباع «ابن سبأ»، الذين ألبوا الناس على «عثمان» - وكلهم عرب مسلمون - لأن لهم الخليفة، وعطف عليهم وحاول استرضاءهم بدلاً من

عقابهم وأخذهم بالشدة.

ولما تهياً الجو، ورأى زعماء الفتنة أن الفرصة سانحة للتخلص من الخليفة، خرجوا إلى «المدينة» على رأس وفود أهل «مصر» و«البصرة» و«الكوفة»، وكانوا نحو عشرة آلاف متظاهرين بالحج، مخفين نياتهم الخبيثة عن عامة الناس، الذين شكوا إلى الخليفة من تصرفات لولاتهم لا يرضونها، فوعدهم خيراً، وأمرهم بالعودة إلى أمصارهم، فرضوا لما رأوه من سماحته وعطفه، وعادوا. أما زعماء الفتنة من أمثال: «الأشتر النخعي»، و«عمرو بن الأصم»، و«حرقوص بن زهير السعدي»، و«الغافقي بن حرب»، فقد ساءهم عودة عامة الناس الذين لا علم لهم بالمؤامرة، وسقط فى أيديهم، وعزموا على قتل الخليفة أو عزله، فتخلفوا فى «المدينة»، وزوروا كتاباً، ادعوا كذباً أنهم وجدوه مع غلام من غلمان «عثمان»، موجه إلى «عبدالله بن سعد» والى «مصر» يأمره فيه بقتل بعض الثائرين وتعذيب بعضهم الآخر.

عاد الثائرون من الطريق بهذا الكتاب، فعرضوه على «على بن أبى طالب»، فأدرك أنه مزور، لأن الذين ادعوا أنهم وجدوه هم أهل «مصر»، ولكنهم عندما عادوا عادوا جميعاً، أهل «مصر»

و«الكوفة» و«البصرة»، مع أن طرقهم مختلفة، فعودتهم فى وقت واحد، يدل على أن الأمر مدبر، فقال لهم على: «كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وطريقكم مختلف وقد سرتهم على مراحل؟! هذا والله أمر أبرم بالمدينة».

ولما علموا أن أمرهم قد ظهر، وخطتهم انكشفت، قالوا لعلى: «ضعوه حيث شئتم - أى الكتاب مصممين على كذبهم - لاجابة بنا إلى هذا الرجل، ليعتزلنا»، ولا شك أن هذا تسليم منهم بأن قصة الكتاب مختلقة، وأن غرضهم الأول والأخير هو خلع أمير المؤمنين أو سفك دمه، الذى عصمه الله بشريعة الإسلام.

*** محاصرة بيت الخليفة وقتله:**

تشبث الأشرار بهذا الكتاب المزور، ولم يستجيبوا لنصح الصحابة بالرجوع إلى بلادهم؛ لأن الخليفة لم يرتكب خطأ يستحق عليه العقاب، فحاصروه فى بيته، ولم تكن هناك قوة تدافع عنه، فقد رفض عرضاً من «معاوية بن أبى سفيان» بالذهاب معه إلى الشام، وكره أن يغادر جوار رسول الله كما رفض أن يرسل «معاوية» إليه جنداً من الشام لحمايته، لأنه كره أن يضيق على أهل مدينة رسول الله ﷺ بجيش يضايقهم فى معاشهم.

ولما رأى «علي بن أبي طالب» و«الزبير بن العوام» و«طلحة بن عبيد الله» وغيرهم الحصار المضروب على بيت الخليفة ؛ أرسلوا أبناءهم لحراسته ، لكنه رفض ذلك أيضاً ، وأقسم عليهم بما له من حق الطاعة عليهم أن يذهبوا إلى بيوتهم ويغمدوا سيوفهم ، لأنه أدرك أن أبناء الصحابة وهم عدد قليل ، إن تصدوا لهؤلاء الأشرار - وكانوا زهاء عشرة آلاف - فقد يقتلونهم جميعاً ، فأثر سلامتهم وحقن دمائهم ، ولعله كان يفكر أن الشوار إذا قتلوه هو فستنتهي المشكلة ، فرأى أن يضحي بنفسه ، حقناً للدماء ، ولم يدر أن دمه الطاهر الذي سيُسفك ، كان مقدمة لبحور من دماء المسلمين ، سالت بعد ذلك نتيجة مقتله .

امتلأ أبناء الصحابة لأمره ، وعادوا إلى بيوتهم ، لكنه طلب منهم ماء للشرب ، بعد أن منعه الشوار عنه ، وهو الذي اشترى للمسلمين «بئر رومة» ووهبها لهم ، بناء على طلب من الرسول ﷺ الذي بشره بنهر عظيم في الجنة .

وكانت أم المؤمنين «أم حبيبة بنت أبي سفيان» أول المغيبيين لعثمان ، لكنها لم تستطع أن توصل الماء إليه لأن الثوار منعوها ، وأساءوا معها الأدب وسبوا ، ولم يراعوا لها حرمة .

فلما فعلوا بأم حبيبة ذلك ، ذهب إليهم «علي بن أبي طالب» - رضى الله عنهم - وقال لهم :

«إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين ، لا تقطعوا عن الرجل المادة (الطعام والشراب) فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى، وما تعرض لكم هذا الرجل ، فبم تستحلون حصره وقتله؟! قالوا : لا والله ولا نعمة عين - يعنى ولا قطرة ماء تصله - لا نتركه يأكل ويشرب» .

وبعد ذلك اقتحموا على الخليفة داره اقتحاماً ، متسلقين من دور

يستحق به أن يرفع هؤلاء الأشرار أصواتهم عليه ولو كان كل مارموه به من تهم صحيحاً - مع أنه باطل وملفق - ما أباح لهم قتله ، ولكنه الحقد الأسود والأفكار الهدامة ، التي زرعها «ابن سبأ» في نفوسهم وعقولهم ، جعلهم يرون فضائله وإنجازاته تهماً وجرائم ، فاتهموه -مثلاً - بأنه تخلف عن «بيعة الرضوان» في «الحديبية» ، مع أنهم يعلمون أنه عندئذ كان في «مكة»



مجاورة ، وقتلوه وهو صائم يقرأ القرآن ، وروعوا الأمة الإسلامية في إمامها ، الذي كانت تستحي منه الملائكة ، وتبأ له بالشهادة ، وكان استشهاده في أواخر شهر ذي الحجة سنة (٣٥هـ) .

قُتل عثمان بن عفان مظلوماً لم يرتكب ذنباً أو يقترب جرماً

وقد وصف «أبو بكر بن العربي» قتلة «عثمان» وصفاً صادقا ، فقال : «وأمثل ما روى في قصته - أى عثمان - أنه بالقضاء السابق ، تألب عليه قوم لأحقاد اعتقدوها ، ممن طلب أمراً فلم يصل إليه ، أو حسد حسادة أظهر داءها ، وحمله على ذلك قلة دين ، وضعف يقين ، وإيثار العاجلة على الآجلة ، وإذا نظرت إليهم ذلك صريح ذكركم على دناءة قلوبهم ، وبطلان أمرهم» .

وقد لا يصدق بعض الناس أن رجلاً واحداً هو «عبدالله بن سبأ» يستطيع أن يفسد أمر أمة بكاملها ، مهما تبلغ قدراته ، بل وصل الأمر ببعضهم إلى إنكار وجوده أصلاً ، ولكن الواقع أن «ابن سبأ» كان موجوداً ووجوده حقيقة ، وهو كأي متآمر خبيث يتمتع بقدر كبير من الدهاء والمكر ، مكنه من أن يستميل إلى صفه صحابين جليلين هما «أبو ذر الغفاري» و«عمار بن ياسر» ، وأن يستغل كل الساخطين من أبناء العرب الطامعين في الوظائف ، بالإضافة إلى الحاقدين من أبناء البلاد المفتوحة ، الذين سقطت دولهم ، وبادت عروشهم ، وخلق من ذلك كله تياراً عاماً ، أدى إلى فتنة عارمة ، ذهب ضحيتها «عثمان بن عفان» ، ولم تنته بعد موته .

خلافة علي بن أبي طالب

(٣٥ - ٤٠هـ)

* نسبه ونشأته :

هو «علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف» ، وأمه «فاطمة بنت أسد ابن هاشم» ، وهى أول هاشمية ولدت هاشمياً ، وقد أسلمت وهاجرت إلى «المدينة» ، وهو ابن عم النبي ﷺ

وتربى في بيته ، لأن أباه كان كثير العيال قليل المال ، فأراد النبي أن يخفف عن عمه أعباء المعيشة ، فأخذ «علياً» ليعيش معه في بيته ، وكان عمره يومئذ ست سنوات ، فشاعت إرادة الله أن ينشأ «علي» في بيت النبوة ، فواقه الله أرجاس الجاهلية ، فلم يسجد لصنم قط ، وكان أول من أسلم من الصبيان .

* صفته :

كان «علي بن أبي طالب» ربيعة من الرجال ، يميل إلى القصر ، أسمر اللون ، حسن الوجه واسع العينين ، أصلع الرأس ، عريض المنكبين ، غزير اللحية .

عُرف «علي بن أبي طالب» بالشجاعة والعلم الغزير ، والزهد في الدنيا مع القدرة عليها ، وكان واحداً ممن حفظوا القرآن كله من الصحابة ، وعرضوه على النبي ﷺ ، ومن أكثرهم معرفة بالقرآن وتفسيره وأسباب نزوله ، وأحكامه ، وكان من كتاب الوحي ، ولذا اختص في سيرته بلقب «الإمام» لأفضليته العلمية والفقهية ، وكان أقضى الصحابة رضى الله

عنهم جميعاً ، واشتهر بالفصاحة والخطابة وقوة الحجّة ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وقد تأخى الرسول ﷺ مع علي بعد الهجرة ، ثم زوجه ابنته «فاطمة» ، وأنجب منها «الحسن» و«الحسين» ، وهما اللذان حفظا نسل الرسول ﷺ .

شهد «علي» المشاهد كلها -عدا تبوك - مع رسول الله ﷺ ، فكان في طليعة من صرعوا المشركين في «بدر» ، وواحد من الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ في غزوة «أحد» ، وحمل اللواء عندما سقط من يد «مصعب بن عمير» بعد استشهاده ، حمله بيده اليسرى ، وظل يقاتل بيده اليمنى ، وصرع في غزوة الخندق «عمرو بن عبد ود» فارس «قريش» والعرب كلها عندما لم يقدم أحد على مبارزته وأعطاه الرسول ﷺ الراية يوم «خيبر» ، وقال : «لأعطين اللواء غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» ، وأخبر أن الفتح سيكون على يديه ، وتحقق ذلك ، وثبت مع من ثبتوا مع النبي ﷺ في «حنين» .

وفى غزوة «تبوك» خلفه النبي ﷺ فى أهله يرعى مصالحهم وشئونهم ، ولما تأذى من ذلك ، وقال : يارسول الله ، تخلفنى فى النساء والصبيان؟! ، فقال له النبي ﷺ : «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعده ؟» ، إشارة من النبي إلى أن «موسى» عندما ذهب لمناجاة ربه ، ترك أخاه «هارون» ، خلفاً له فى قومه ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾

[الأعراف : ١٤٢]

وكان رضى الله عنه موضع ثقة واحترام من الصحابة جميعاً ، فكان من أكبر أعوان «أبى بكر الصديق» فى قمع حروب الردة ، ولازم «عمر بن الخطاب» ، فكان لا يقطع أمراً دون مشاورته ، والاستشارة برأيه ، وكان «عمر» يقول : «قضية ولا أبا حسن لها» . وعاون «عثمان» بالرأى والمشورة مثلما كان يفعل مع «أبى بكر» و«عمر» ، فلم يحجب عنه نصحه ومؤازرته فى الفتنة التى أطبقت على الأمة ، وأرسل أولاده مع بقية أولاد الصحابة لحراسته والدفاع عنه ، ثم ذهب بنفسه لمواجهة الأشرار .

بيحته بالخلافة

رُوِّت «مدينة» رسول الله ﷺ بمقتل أمير المؤمنين «عثمان بن عفان» - رضى الله عنه - وعم الناس الهلع والرعب ، لهذه الجريمة التى أقدم عليها هؤلاء الأشرار .

سيطر الثائرون على «المدينة» ، وظل «الغافقى بن حرب» زعيم ثوار «مصر» ، وأحد كبار زعماء الفتنة يصلى بالناس إماماً فى مسجد رسول الله ﷺ خمسة أيام ، والدولة كلها بدون خليفة ، ولم يكن فى وسع أحد من الثوار أن يرشح نفسه لها ، لأنهم يعلمون أن هذا الأمر يخص المهاجرين وحدهم .

وبدأ الثائرون يعرضون منصب الخلافة على كبار الصحابة : «على ابن أبى طالب» ، و«طلحة بن عبيد الله» ، و«سعد بن أبى وقاص» ، و«الزبير بن العوام» ، و«عبدالله بن عمر بن الخطاب» ، فرفضوا جميعاً ، وسماهم «على ابن أبى طالب» الثائرين ولعنهم على فعلتهم الشنعاء ، فهددهم الثائرون بقتلهم جميعاً كما قتلوا «عثمان» إن لم يقبل أحدهم منصب الخلافة .

وفى مثل هذه الظروف العصية كان لابد من رجل شجاع غير هيب ، يتقدم الصفوف لحمل الأمانة وسط الأخطار المحدقة بها ،

واتجهت الأنظار إلى «على بن أبى طالب» ، وتعلقت به الآمال ، ترجوه تحمل المسؤولية ، وقيادة الركب إلى بر الأمان ، وألح عليه كبار الصحابة إلحاحاً شديداً لتولى المنصب الشاغر ، منصب الخلافة الجليل ، فقبل تجشم تبعاتها فى هذه الظروف الدقيقة ، وكان قبوله لها ضرباً من ضروب الفروسية والشجاعة ، والاحتساب عند الله ، والنزول على رغبة كبار الصحابة .

كان «على بن أبى طالب» هو أول خليفة يخطب قبل البيعة ، وكانت خطبة قصيرة ، أشهد الله عليهم ، وأشهدهم على أنفسهم أنهم هم الذين ألخوا عليه تقبل أمر كان له كارهاً ، لتبعاته ومسئوليته ، فلما وافقوا بابعوه ، ولهذا كان عليه أن يخطب مرة أخرى خطبة يوضح فيها أسلوبه فى الحكم ، فقال :

«إن الله أنزل كتاباً هادياً ، بين فيه الخير والشر ، فخذوا بالخير ودعوا الشر ، الفرائض الفرائض أدوها إلى الله تعالى يؤدكم إلى الجنة ، إن الله حرم حرمات غير مجهولة ، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها ، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين ، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق ، لا يحل دم امرئ مسلم إلا بما يجب ، بادروا أمر العامة ، وخاصة أحدكم الموت ، فإن الناس أمامكم ، وإن من خلفكم الساعة

تحدوكم تحقفوا تلحقوا ، فإنما ينتظر الناس أخراهم ، اتقوا الله عباد الله فى بلاده وعباده ، إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم ، أطيعوا الله فلا تعصوه

﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾

[الأنفال : ٢٦]

خطبة قصيرة مناسبة للمقام وللظرف الذى قيلت فيه ، فقد بدأها بالتذكير بالله ، وحث المسلمين على عمل الخير وتجنب الشر ، وحذرهم حرمات الله والوقوع فيها ، وأهمها حرمة دم المسلم ، ولعله بذلك يعرض بقتله «عثمان» ويحدد موقفه من هذه الفعلية الشنعاء ، وأنه لن يتساهل فى القصاص منهم ، وإقامة الحد عليهم .

على والقرارات الصعبة

تمت بيعة «على بن أبى طالب» فى اليوم الخامس والعشرين من شهر ذى الحجة سنة (٣٥ هـ) ، فاستقبل بخلافته عام (٣٦ هـ) ، وكان عليه أن يواجه الموقف العصيب ، الذى نتج عن استشهاد أمير المؤمنين «عثمان بن عفان» ، باتخاذ قرارات صعبة تجاه عدد من المعضلات ، التى كان أولها :

- القصاص من قتلة «عثمان» - رضى الله عنه - وكان ذلك

مطلب الصحابة ، ففى أول يوم من خلافته ذهب إليه «طلحة» و«الزبير» ، وطالباه بإقامة الحد على القتلة ، وكان هو مقتنعاً بذلك ، ولذلك قال لهما :

«يا إخوانه إنى لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا غلهم ؟ هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم - أى يعيشون بينكم - يسومونكم ماشاءوا - أى يسيطرون عليكم - فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون ؟ قالوا : لا ، قال : فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه أبداً» .

ويتضح من هذا أن «على بن أبى طالب» لم يكن أقل من غيره حرصاً على إقامة الحد على قتلة «عثمان» ، ولكن الظرف الذى هم فيه لا يمكنه من ذلك ، فإذا كان الذين نفذوا القتل فى «عثمان» عدداً محدوداً ، وهم «الغافقى بن حرب» ، ومعه «سودان بن حمران» و«كنانة بن بشر التجيبى» ، فإن وراءهم نحو عشرة آلاف من الثوار الذين ضللوهم ، وهم مستعدون للدفاع عنهم ، ولذلك عندما كانوا يسمعون قائلاً يقول : من قتل «عثمان» ؟ كان هؤلاء جميعاً يصيحون : نحن جميعاً قتلناه ، ولذا كان رأى الإمام التريث حتى تهدأ الأمور ، ويعود الناس إلى بلادهم ، حتى يتمكن

من التحقيق فى الأمر وإقامة الحد ، وقد اقتنع الصحابة بهذا الحل ، لكن الأمور تطورت تطوراً آخر على غير ما يهوى الجميع .

- وتغيير كل ولاية «عثمان» على الولايات الكبرى : «مصر» و«الشام» ، و«الكوفة» ، و«البصرة» حتى تهدأ الفتنة . وقد اتخذ «على» بالفعل قراراً بذلك ، فعزل «معاوية بن أبى سفيان» عن الشام ، وعين بدلاً منه «سهل بن حنيف» ، وعزل «عبدالله بن سعد ابن أبى السرح» عن «مصر» وعين بدلاً منه «قيس بن سعد بن عباد» ، وعزل «عبدالله بن عامر» عن «البصرة» وعين بدلاً منه «عثمان بن حنيف» ، وعزل «أبا موسى الأشعرى» عن «الكوفة» ، وعين بدلاً منه «عمارة بن شهاب» .

وهذا القرار الخطير راجعه فيه أقرب الناس وأخلصهم له ، ابن عمه «عبدالله بن عباس» ، ونصحه بالانتظار فترة ولو لمدة سنة ، لتكون الأمور قد هدأت واستقرت ، ويتم التغيير فى ظرف مناسب ، لكن الإمام أصر على تنفيذ قراره محتجاً بأن هؤلاء الثوار ثاروا غضباً من ولاية «عثمان» ، سواء أكانوا مخطئين أم مصيبين ، ولن تهدأ ثورتهم إلا إذا عزلوا .

وإزاء إصرار على - رضى الله عنه - على تنفيذ قراره ،

اقترح «ابن عباس» أمراً آخر ، بأن يعزل من يشاء من الولاة ، ويبقى «معاوية» على ولاية الشام ، وكان اقتراحاً ذكياً وجيهاً ، فمعاوية لم يكن موضع شكوى أحد من رعيته ، ولم يشترك أهل الشام في الثورة على «عثمان» وقتله ، وعلى هذا فلو أقره على ولاية الشام ، فلن يلومه أحد ، وكان «ابن عباس» يعرف من ناحية أخرى أن «معاوية» لن يذعن لقرار العزل ، وسيبقى في ولايته ، مسبباً متاعب كثيرة ، ومع هذا صمم الإمام «علي بن أبي طالب» على عزل ولاة «عثمان» جميعاً بما فيهم «معاوية» .

بدأ الولاة الجدد يتجهون إلى ولاياتهم لمباشرة أعمالهم ، فذهب «قيس بن سعد» إلى «مصر» ، ودخلها بدون متاعب ؛ لأن واليها القديم «عبدالله بن سعد» تركها منذ علمه بمقتل «عثمان» ، وذهب إلى «فلسطين» ، واعتزل الفتنة ، وبقي هناك حتى مات في مدينة «عسقلان» سنة (٣٧هـ) .

وكذلك دخل «عثمان بن حنيف» «البصرة» ، وتولى شئونها بدون مشاكل ؛ لأن واليها «عبدالله ابن عامر» كان قد تركها وذهب إلى «مكة» .

أما «عمارة بن شهاب» فلم يمكنه أهل «الكوفة» من دخولها ، وتمسكوا بواليتهم «أبي موسى

الأشعري» ، فوافق الإمام «علي» على ذلك ، وأقر عليهم «أبا موسى الأشعري» .

وكذلك لم يستطع «سهل بن حنيف» دخول الشام ، فقد منعه «معاوية بن أبي سفيان» ، رافضاً قرار العزل . وهنا لم يعامل الإمام «علي» الشام معاملة «الكوفة» ، فإنه رفض إقرار «معاوية» في ولاية الشام ، مع أن تمسك أهلها به كان أشد من تمسك أهل «الكوفة» بأبي موسى الأشعري .

* بين علي ومعاوية :

دارت مراسلات عديدة بين «علي» و«معاوية» - رضى الله عنهما - يطلب الأول من الآخر مبايعته بالخلافة ، والإذعان لأوامره ، باعتباره الخليفة الشرعي الذي بايعه معظم الصحابة في «المدينة» ، على حين يطلب الثاني من الأول القصاص من قتلة «عثمان» ، باعتباره ولي دمه ، لأنه ابن عمه ، وبعدها ينظر في بيعته .

ولم تكن وجهة نظر الإمام في قضية القصاص رافضة ، لكنه كان يرغب في تأجيلها حتى تنهيا الظروف المناسبة ، ولكن «معاوية» تمسك بالقصاص أولاً ، وجعله شرطاً لازماً يسبق البيعة .

ولما لم تؤد الاتصالات بينهما إلى نتيجة ، وصلت رسالة من «معاوية» إلى «علي» تتضمن جملة واحدة ، هي : «من معاوية إلى

علي» ، بعثها «معاوية» بضاء مع رجل يدعى «قبيصة» من «بنى عبس» ، وأمره أن يدخل بها «المدينة» ، رافعاً يده حتى يراها الناس ، ويعلموا أن «معاوية» لم يبايع «علياً» ، إذ يخاطبه باسمه فقط دون أن يصفه بأمر المؤمنين . وأدرك على رضى الله عنه - أن حمل معاوية على البيعة سلماً غير ممكن ، فأخذ يعد العدة لحمله على البيعة بالقوة ، باعتباره خارجاً على طاعة الخليفة ، على الرغم من أن كثيرين نصحوه بعدم اللجوء إلى الحرب لعواقبها الوخيمة ، ومن بينهم ابنه «الحسن» لكن الإمام «علي» أصر على موقفه ، وبينما هو يستعد لذلك ، جاءته أخبار أخرى مفزعة من «مكة» ، تخبره بمسير «عائشة» وجماعتها إلى «البصرة» .

* موقعة الجمل (٣٦هـ) :

كانت أم «المؤمنين عائشة» -رضى الله عنها - عائدة من أداء فريضة الحج ، وسمعت بمقتل «عثمان» ، فأعدت من الطريق إلى «مكة» ، وأعلنت سخطها على قتله ، وأخذت تردد «قتل والله عثمان مظلوماً لأطلبن بدمه» ، ثم وافاها في «مكة» «طلحة» و«الزبير» - رضى الله عنهما - و«بنو أمية» ، وكل من أغضبه مقتل «عثمان» ، وراحوا يتباحثون في الأمر ، وهداهم تفكيرهم إلى تجهيز جيش للأخذ بالثأر من قتلة «عثمان» والسير به إلى «البصرة» ، باعتبارها أقرب بلد إليهم من البلاد التي اشترك أهلها في الثورة على «عثمان» وقتله ، وكان هذا اجتهداً

منهم مجاناً للصواب ، لأنهم بهذا العمل كأنهم أقاموا حكومة أخرى غير حكومة الإمام ، المباح شرعاً من الأمة ، والمنوط به وحده إقامة الحدود والقصاص من القتلة ، وربما كان الأفضل من هذا أن يتوجهوا إلى «المدينة» ، ليشيدوا من أزر الخليفة في هذا الوقت العصيب الذي تمر الأمة به ، ويتشاوروا معه في إيجاد طريقة لحل المشكلات التي تواجهها الأمة .

وصلت أخبار سير «عائشة» ومن معها إلى «علي» وهو يتأهب للخروج إلى الشام لقتال «معاوية» ، فاضطر إلى تغيير خطته ، فلم يعد ممكناً أن يذهب إلى الشام ، ويترك هؤلاء يذهبون إلى «البصرة» ، فاستعد للذهاب إلى هناك .

خرجت السيدة «عائشة» -رضى الله عنها - ومعها في البداية نحو ألف رجل لكن هذا العدد تضاعف عدة مرات ، بانضمام كثيرين إلى الجيش ، نظراً إلى مكانة «عائشة» ، فلما اقتربوا من «البصرة» ، أرسل واليها «عثمان بن حنيف» إلى أم المؤمنين «عائشة» رسولين من عنده ، هما «عمران بن حصين» و«أبو الأسود الدؤلي» يسألانها عن سبب مجيئها . فقالت لهما : «إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا رسول الله ﷺ ، وأحدثوا فيه الأحداث وآووا فيه

المحدثين ، واستوجبوا لعنة الله ورسوله ، مع مانالوا من قتل إمام المسلمين ، بلا ترة ولا عذر ، فخرجت في المسلمين ، أعلمهم ما أتى هؤلاء» .

وكذلك سأل الرسولان «طلحة» و«الزبير» - رضى الله عنهما - عن سبب مجيئهما ، فقالا : «الطلب بدم عثمان» ، فرجع الرجلان وأخبرا «عثمان بن حنيف» ، فقال : «إنا لله وإنا إليه راجعون ! دارت رحى الإسلام ورب الكعبة» ، وأصر على منعهم من دخول «البصرة» ، فدارت بينه وبينهم معركة عند مكان يسمى «الزابوقة» قُتل فيها نحو ستمائة من الفريقين ، فلما رأوا كثرة القتلى تنادوا إلى الصلح والكف عن القتال ، وانتظار قدوم الإمام «علي» إلى «البصرة» ، وتم الصلح على أن يتركوا للوالى دار الإمارة والمسجد وبيت المال ، وينزلوا هم في أى مكان بالبصرة .

* وصول «علي» إلى البصرة :

وصل «علي» إلى «البصرة» وعلم بما حدث من سفك الدماء وهاله ذلك ، فأرسل على الفور «القعقاع بن عمرو التميمي» إلى معسكر «عائشة» و«طلحة» و«الزبير» ، ليعرف ماذا يريدون ، فقالت «عائشة» - رضى الله عنها - : «خرجنا لنصلح بين الناس» ، وكذلك قال «طلحة»



و«الزبير»، فسألهم «ما وجه الإصلاح الذى تريدون»، قالوا: «قتلة عثمان»، قال: «لقد قتلتم ستمائة من قتلة عثمان، فغضب لهم ستة آلاف من قبائلهم، وكنتم قبل ذلك أقرب إلى السلامة منكم الآن»، قالوا: «فماذا ترى أنت؟»، قال: «أرى أن هذا الأمر دواؤه التسكين»، واقترح عليهم تجديد البيعة لعلى، ومقابلته، والتفكير بعد ذلك فيما يصلح المسلمين، فقبلوا.

ومعنى ذلك أن الجميع كانوا راغبين، فى الإصلاح، كل على حسب اجتهاده، لكن عناصر الشر التى كانت لاتزال فى معسكر «علی» هى التى أفسدت السعى الذى قام به «الققعاق».

* أتباع ابن سبأ يفسدون الصلح ويبدأون المعركة:

كانت نقطة الضعف التى فى معسكر الإمام «علی» هى وجود كثيرين ممن اشتركوا فى قتل «عثمان» والتخطيط له، وعلى رأسهم «عبدالله بن سبأ»، و«الأشتر النخعي»، ولم يكن لعلی حيلة فى وجودهم معه، ولا قدرة على إبعادهم، لكونهم قوة كبيرة تساندتهم عصابات قبلية، وقد أدرك زعمائهم الذين تولوا كبر الثورة على «عثمان» أن الصلح بين الفريقين سيجعل «علی» يتقوى بانضمام الفريق الآخر إليه، ويقيم الحد عليهم باعتبارهم قتلة

«عثمان»، فعزموا على إفساد الأمر كله.

وترتب على هذا العزم أن عقد «ابن سبأ» لهم مؤتمراً تدارسوا فيه الأمر، فاقترح «الأشتر» أن يقتلوا «علیاً» كما قتلوا «عثمان» من قبل، فتهيج الدنيا من جديد، ولا يقدر عليهم أحد، لكن هذا الاقتراح لم يعجب «ابن سبأ»، فهو يريد أن يدخل الأمة كلها فى حرب طاحنة، لا أن يقتل فرد واحد وإن كان خليفة المسلمين، فأمرهم بشن هجوم فى ظلام الليل على جيش «عائشة» و«طلحة» و«الزبير»، بدون علم الإمام «علی»، فاستجابوا لرأيه، وبينما الناس نائمون مطمئنون بعد أن رأوا بوار الصلح تلوح فى الأفق، إذا بهم يفاجئون بققعة السلاح، وكانت هذه هى بداية حرب «الجمال» المشؤمة التى راح ضحيتها خيرة الصحابة «طلحة» و«الزبير» المشران بالجنة، ونحو عشرين ألفاً من المسلمين.

* أسباب خروج عائشة ومن معها:

لم تكن أم المؤمنين «عائشة»، ولا «طلحة» ولا «الزبير» ولا أمير المؤمنين «علی» يريدون سفك الدماء، ولا يتصورون حدوث ذلك، وكل ما دفع السيدة «عائشة» ومن معها إلى الخروج إنما هو اقتناعهم بأن «عثمان» قُتل مظلوماً، وعليهم تقع مسؤولية

إقامة الحد على قتلته، ولم يكونوا أبداً معادين لعلی، أو معترضين على خلافته، وقد رأينا ميلهم جميعاً إلى الصلح، لولا أن أتباع «ابن سبأ» السبئية أفسدوا كل شيء وأشعلوا الحرب، ولقد ندمت السيدة «عائشة» ندماً شديداً على ما حدث، وقالت: «والله لوددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة».

وخلاصة القول أن تبعة هذه المأساة تقع على عاتق «السبئية»، فهم الذين أشعلوا الفتنة من البداية، وقتلوا خليفة المسلمين ظلماً، وأشعلوا حرب «الجمال»، أما الصحابة، فقد وصف «ابن خلدون» موقفهم وصفاً دقيقاً، فقال: «وإذا نظرت بعين الإنصاف عذرت القوم أجمعين، وعلمت أنها كانت فتنة ابتلى الله بها الأمة»

* معركة صفين (٩):

بعد معركة «الجلل» توجه «علی» ابن أبى طالب بجيش يبلغ عدده نحو مائة ألف إلى «صفين»، واستعد «معاوية» لمقابلته بجيش يقاربه فى العدد، ودارت بينهما معركة شرسة فى شهر صفر سنة (٣٧هـ) قُتل فيها من الجانبين نحو



سبعين ألفاً، خمسة وعشرين ألفاً من جيش «علی»، وخمسة وأربعين ألفاً من جيش «معاوية»، ولما رأى الناس كثرة القتلى من الجانبين تنادوا يطلبون وقف القتال، فجعل أهل «العراق» (جيش «علی») يصيحون فى أهل الشام (جيش «معاوية») قائلين: من لشغور «العراق» إن فنى أهل «العراق». ويرد الآخرون: من لشغور الشام إن فنى أهل الشام. ومن هنا جاءت فكرة التحكيم.

* التحكيم:

رفع جيش «معاوية» المصاحف للاحتكام إليها، ووقف القتال فوراً، بدلاً من سفك الدماء، وكانت فكرة التحكيم من عند «عمرو بن العاص»، وقد قبلها الطرفان، وأوقفت الحرب، بعد أن فزع الناس لكثرة عدد القتلى. أوقفت الحرب، وطلب من «علی» و«معاوية» أن ينيب كل منهما شخصاً يتفاوض باسمه، للفصل فى القضايا محل الخلاف، فأناوب «معاوية» «عمرو بن العاص»، وأناوب «علی» «أبا موسى الأشعري» على كره منه وذلك فى شهر صفر (٣٧هـ) وكان «علی» قد حاول أن ينيب عنه «عبدالله بن عباس»، لكن أنصاره، وبخاصة من أبناء «اليمن» بزعماء «الأشعث ابن قيس»، رفضوا ذلك بحجة عصبية، وأعلنوها صراحة، كيف يكون الخلاف بين رجلين من



«قریش»، ثم يكون الحكمان رجلين من «قریش» أيضاً، لقد حسدوا قریشاً على زعامتها للدولة الإسلامية التى استحققتها بسابقتها فى الإسلام، لا بنسبها فقط.

واتفق على أن يأخذ الطرفان مهلة مدتها ستة أشهر، تهدأ فيها النفوس، ويجتمع الحكمان للتباحث والوصول إلى حل، وبعد مفاوضات طويلة وصل الحكمان إلى نتيجة رأياها أفضل الحلول، وهى عزل «علی» -رضى الله عنه- عن الخلافة، ورد الأمر إلى الأمة تختار من تشاء، أما التصرف العملى فى إدارة البلاد التى كانت تحت يد كل من الرجلين المتحاربين، فيبقى كما كان: «علی» يتصرف فى البلاد التى تحت حكمه (وهى كل الدولة الإسلامية عدا الشام) و«معاوية» يتصرف فى البلاد التى تحت حكمه (الشام).

* موقف علي وأنصاره من التحكيم :

اجتهد الحكمان فيما توصلا إليه، وأعلناه على الناس، غير أن «عليًا» - رضى الله عنه - لم يقبل تلك النتيجة، واعتبر الحكمين قد تجاوزا حدودهما؛ لأن الخلاف لم يكن على منصب الخلافة، وإنما على إقامة الحد على قتلة «عثمان»، وبيعة «معاوية» له، أيهما يسبق الآخر، ولذلك عدّ نفسه في حل من هذه النتيجة، فعادت الأمور إلى ما كانت عليه قبل التحكيم، أى إلى حالة الحرب.

* ظهور الخوارج :

حاول «علي» أن يدعو أنصاره إلى حرب «معاوية» من جديد لكنهم كانوا قد ملوا القتال، وتقاعدوا عنه، بل إنهم انقسموا إلى «شيعة» وافقوه على ماصنع «وخوارج» اعتبروا التحكيم كان خاطئًا من أساسه، مع أنهم هم الذين فرضوه عليه، ثم تجاوزوا ذلك إلى ما هو أكثر تطرفًا، فاتهموا «عليًا» بالكفر، لأنه حكم الرجال في القرآن، وصاغوا شعارًا أخذوا يرددونه «الحكم لله لا لك يا علي»، وكان هو يقول لهم: «كلمة حق أريد بها باطل»، وطالبوه بأن يعلن كفره، ويتوب ويسلم من جديد، حتى يعودوا إليه ويقاتلوا معه، فإذا لم يفعل

فسوف يقاتلونه.

ولا يمكن لمسلم أن يتصور كيف يُكفر رجل من صحابة رسول الله المبشرين بالجنة، ومن رضى الله عنهم تحت الشجرة في «بيعة الرضوان»، وإزاء هذا التطرف من «الخوارج» اضطر الإمام أن يحاربهم في معركة شهيرة تُسمى معركة «النهر» بالقرب من «الكوفة»، وبعدها لم يستطع أن يجمع شمل أنصاره لقتال «معاوية» من جديد كما كان يريد، بل أجبرته الظروف على التفاهم والاتفاق معه.

* الاتفاق بين علي ومعاوية :

بعد انقسام جبهة «علي» إلى «شيعة» و«خوارج» ازداد موقفه ضعفًا؛ لأن صراعه مع «الخوارج» كبده متاعب جسيمة، وفي الوقت نفسه كان موقف «معاوية» يزداد قوة، وبخاصة بعد أن استطاع الاستيلاء على «مصر» سنة (٣٨هـ)، بجيش قاده فاتحها الأول «عمرو بن العاص»، ونشر قوات له في أطراف «العراق»، وضم «اليمن» إليه، وأصبحت دولته تتسع بمرور الزمن، في الوقت الذي تضيق فيه دولة «علي».

وانتهى الأمر بأن جرت بينهما مفاوضات طويلة، اتفقا على وضع الحرب بينهما وتكون ل«علي» «العراق» وبلاد فارس و«معاوية» الشام فلا يدخل أحدهما على

صاحبه في عمله بجيش ولا غارة... وتراضيا على ذلك... وهكذا أجبرت الظروف التي تكون أحيانًا أقوى من الرجال «علي بن أبي طالب» أن يصالح «معاوية»، ويسلم له بنصف الدولة الإسلامية تقريبًا، يحكمها حكمًا مستقلا، وهو الذي رفض في بادئ الأمر إبقاءه واليًا على الشام وحدها يأتمر بأمره، وينتهى بنهيته.

* إدارة الدولة وتثبيت الفتوحات في عهده :

على الرغم من الظروف الصعبة التي واجهت الإمام «عليًا» - رضى الله عنه - فإنه أدار الدولة باقتدار وعدالة ونزاهة وتجرد، ولم يقصر في شأن من شئونها، واتخذ من «الكوفة» عاصمة لدولته منذ أن خرج من «المدينة» إلى «البصرة» وبعد معركة «الجمل»، وظل يحكم منها إلى أن لقي الله، وعهد بإدارة بقية أجزاء دولته إلى أقرب الناس إليه، وأخلصهم له، فجعل «عبدالله بن عباس» واليًا على «البصرة» وأخاه «عبيد الله بن عباس» واليًا على «اليمن»، وأخاهما الثالث «قثم بن عباس» على «مكة» و«الطائف»، وعزل «قيس بن سعد» عن «مصر»، وولى مكانه «محمد بن أبي بكر الصديق».

ولا لوم على «عثمان» و«علي» إذا وليا أهل قرابتهما؛ لأن كل

واحد منهما اجتهد لمصلحة الأمة، وكان أمينًا عليها، فعهد بإدارة الدولة إلى من رأى أنهم ينفذون سياسته، ولم يول أي منهما أحدًا محابة أو لقاربة.

ولم تشغل الإمام «عليًا» مشكلات الدولة الداخلية عن التصدي لمحاولات الانتفاض التي حدثت في بلاد فارس، فقد حاول الفرس تكرار ما فعلوه بعد استشهاد «عمر بن الخطاب»، فأرسل إليهم «زياد بن أبيه» في جمع كثير، «فوطئ بهم أهل فارس»، وكانت قد اضطرت، فلم يزل يبعث إلى رؤوسهم، يعد من ينصره ويعينه، ويخوف من امتنع عليه، وضرب بعضهم ببعض، فدل بعضهم على عورة بعض، وهربت طائفة، وأقامت طائفة، فقتل بعضهم بعضًا، وصفت له فارس، فلم يلتق منهم جمعًا ولا حربًا.

أما الروم فلم يتحركوا؛ لأن

الإمبراطور «قنسطانز» لما عرض عليه بعض قواده أن ينتهزوا فرصة الحروب التي جرت بين «علي» وأصحاب «الجمل»، وبينه وبين «معاوية»، ويغيروا من جديد على «مصر» و«الشام»، فرفض الإمبراطور معللاً ذلك بأن غزوه لمصر والشام سيجعل المسلمين يتصالحون ويتحدون ويقاتلوننا جميعًا، ولن نقوى عليهم، فخير لنا أن نتركهم يقتل بعضهم بعضًا حتى يضعف شأنهم.

* استشهاد علي رضى الله عنه :

جاءت نهاية الإمام «علي بن أبي طالب» على يد «الخوارج»، أنصاره السابقين، الذين بلغ بهم الغلو والتطرف حدًا اعتبروا فيه «عليًا» و«معاوية» و«عمرو بن العاص» أئمة ضلالة، وحملوهم مسؤولية ما حدث، وقرروا قتل الثلاثة جميعًا، واتفقوا أن يتم التنفيذ في وقت واحد،

هو فجر اليوم السابع عشر من شهر رمضان سنة (٤٠هـ)؛ تيمنًا بذكرى معركة «بدر» حسب تصور نفوسهم المريضة وعقولهم الفاسدة، وانتدبوا ثلاثة للقيام بهذه المهمة، هم «عبدالرحمن بن ملجم»، و«البرك بن عبدالله»، و«عمرو بن بكر»، على أن يذهب الأول إلى «الكوفة» لقتل «علي»، والثاني إلى «دمشق» لقتل «معاوية»، والثالث إلى «مصر» لقتل «عمرو بن العاص».

وشاءت إرادة الله - تعالى - أن ينجو «معاوية» و«عمرو» من القتل، وأن تكون الشهادة من نصيب «علي»، حيث ضربه «عبدالرحمن ابن ملجم» بسيف مسموم في جبهته، فشققها فمات من أثر الضربة بعد وقت يسير، بعد أن قضى أربع سنوات وبضعة شهور، لم يذق فيها طعم الراحة، وحاصرته المشكلات والمتاعب، وأنهكتته الحروب من كل جانب.



خلافة الحسن بن علي

(٤٠ - ٤١هـ)

وبعد وفاة الإمام «علي» بايع أنصاره ابنه «الحسن»، وكان «جندب بن عبدالله» قد دخل على الخليفة بعد طعنه وتيقن ألا أمل في حياته، وسأله: «يا أمير المؤمنين إن فقدناك - ولا نفقدك - أنبايع للحسن؟ فقال: ما أمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر».

ولم يوص لأحد من بعده، بل قال لهم: «ولكن أدعو الله - تعالى - أن يجمعكم بعدى على خيركم كما جمعنا بعد نبينا على خيرنا» - يقصد أبا بكر -، مرسحاً بذلك قاعدة الشورى التي اتبعت في بيعته هو وبيعة الثلاثة الراشدين من قبله.

أراد أنصار «الحسن» أن يتأهبوا لقتال «معاوية» من جديد، لكنه رفض، ورأى عدم جدوى ذلك، بل إنه وقف ضد فكرة اقتتال المسلمين من البداية.

راسل «الحسن» «معاوية» بشأن الصلح، فسر به سروراً عظيماً، وجاء إلى «الكوفة» في شهر ربيع الأول سنة (٤١هـ)، بعد ستة أشهر من خلافة «الحسن»، وبايعه «الحسن» و«الحسين»، وتبعهما الناس، وبهذا قامت الدولة الأموية رسمياً، وأصبح «معاوية» خليفة للأمة الإسلامية كلها، ولُقّب لأول



الهوامش

- (١) يذكر ابن إسحاق في رواية أخرى أن خديجة نفسها هي التي عرضت عليه أن يعمل في تجارتها لسمعته الطيبة وأمانته.
- (٢) الأخشيان: جيلان في مكة.
- (٣) «قباء» بضم القاف: اسم بئر عرفت به قرية «قبا» ، وهي تُعد ضاحية من ضواحي «المدينة» في جهتها الجنوبية.
- (٤) أوصى الرسول ﷺ بحسن معاملة الأسرى بعد غزوة «بدر» ، فكانوا يؤثرونهم على أنفسهم بالطعام.
- (٥) راجع الآيات من [سورة نوح] ، و[الأنبياء: ٥٢] ، و[الأعراف: ٦٥: ٧٦] ، و[الصف: ٥ ، ٢٦] وغيرها كثير، فهي تحدد أن كل رسول أرسل إلى قومه فقط .
- (٦) «ذو الحليفة» ميقات الإحرام لأهل «المدينة» بالحج والعمرة ، وهي على بعد ستة أميال منها في طريق «مكة المكرمة».
- (٧) نهاوند: مدينة عظيمة في إيران ، شرقي نهر دجلة .
- (٨) بيت الدقيق: أنشأه عمر لإغاثة الجياع الذين لا يجدون الطعام.
- (٩) صفين: موضع على شاطئ الفرات الغربي بين العراق والشام .

المراجع والمصادر

- ابن الأثير (عز الدين): الكامل في التاريخ - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٧م .
- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - جامعة بغداد - الطبعة الثانية - ١٩٩٣م .
- ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي): الإصابة في تمييز الصحابة - دار الجيل - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٢م .
- ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي): فتح الباري بشرح صحيح البخاري - المكتبة السلفية - القاهرة - الطبعة الثالثة - ١٤٠٧هـ .
- سليمان الطماوي: عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة - دار الفكر العربي - القاهرة - بدون تاريخ .
- السيد سابق: فقه السنة - دار الريان للتراث - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٨٨م .
- السيوطي (جلال الدين): تاريخ الخلفاء - دار الفكر العربي - القاهرة - بدون تاريخ .
- الصالحى (محمد بن يوسف): سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد - الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة - ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م .
- الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الطبري - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤١٨هـ = ١٩٨٨م .
- عباس محمود العقاد: عبقرية عمر - دار نهضة مصر - القاهرة - بدون تاريخ .
- ابن عبد البر (يوسف بن عبدالله): الدرر في اختصار المغازي والسير - دار المعارف - الطبعة الثانية - ١٩٨٣م .
- ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن): فتوح مصر وأخبارها - نشره وصححه: هنري ماسيه - القاهرة - ١٩١٤م .
- عبدالحى الكتاني: التراتيب الإدارية أو نظام الحكومة النبوية - دار الكتاب العربي - بيروت - بدون تاريخ .
- ابن كثير (إسماعيل بن عمر): البداية والنهاية - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الرابعة - ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م .
- محمد بن الحسن الشيباني: كتاب السير الكبير - مطبعة شركة الإعلانات الشرقية - القاهرة - ١٩٧١م .
- محمد حسين هيكل: الفاروق عمر - دار المعارف - القاهرة - بدون تاريخ .
- محمد أبو زهرة: خاتم النبیین - دار الفكر العربي - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٧٣م .
- محمد أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة - دار القلم - دمشق - الطبعة الأولى - ١٩٨٨م .
- محمد صادق عرجون: محمد رسول الله ﷺ منهج ورسالة - دار القلم - دمشق - الطبعة الأولى - ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م .
- محمد بن عبدالله الأزدي: فتوح الشام - تحقيق عبدالمعزم عبدالله عامر - مؤسسة سجل العرب - ١٩٧٠م .

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
جغرافية جزيرة العرب .	٥	الخليفة الأول (أبو بكر الصديق) .	٥٦
مكة المكرمة .	٦	أهم معارك حروب الردة .	٦٢
أحوال العرب قبل الإسلام .	٧	الفتوحات الإسلامية في عهده .	٦٣
ميلاد الرسول .	١١	الجمع الأول للقرآن في عهد أبي بكر الصديق .	٦٧
البعثة .	١٨	عمر بن الخطاب .	٦٨
الجهاد في العهد المكي .	٢١	توليه الخلافة .	٦٩
الإسراء والمعراج .	٢٣	الفتوحات في عهد عمر بن الخطاب .	٧١
الهجرة إلى المدينة .	٢٤	عوامل نجاح الفتوحات الإسلامية في عهد عمر .	٧٧
المسلمون في المدينة .	٢٩	نتائج الفتوحات الإسلامية وأثارها على العالم .	٧٩
حكومة الرسول .	٣١	عمر وإدارة الدولة .	٧٩
مشروعية القتال في الإسلام .	٣٢	إصلاحات عمر بن الخطاب وإنشاءاته .	٨٤
غزوات الرسول .	٣٤	استشهاده .	٨٤
غزوة بدر الكبرى .	٣٥	المؤامرة .	٨٥
غزوة أحد .	٣٨	تفكير عمر في أمر الخلافة ووفاته .	٨٦
غزوة الأحزاب .	٣٩	خلافة عثمان بن عفان .	٨٧
فتح مكة المكرمة .	٤٣	أهل الشورى وبيعة عثمان .	٨٨
غزوة حنين .	٤٤	الفتوحات في عهد عثمان بن عفان .	٩٠
غزوة تبوك .	٤٦	نشأة الأسطول الإسلامي .	٩٢
عالمية الرسالة الإسلامية .	٤٧	مصحف عثمان .	٩٥
رسائل الرسول إلى ملوك العالم ورؤسائه .	٤٨	الفتنة وأسبابها .	٩٦
حجة الوداع .	٥١	خلافة علي بن أبي طالب .	١٠١
شخصية الرسول .	٥٢	يبعته بالخلافة .	١٠٢
مرض الرسول ووفاته .	٥٣	على والقرارات الصعبة .	١٠٣
قيام الخلافة .	٥٥	خلافة الحسن بن علي	١١٠

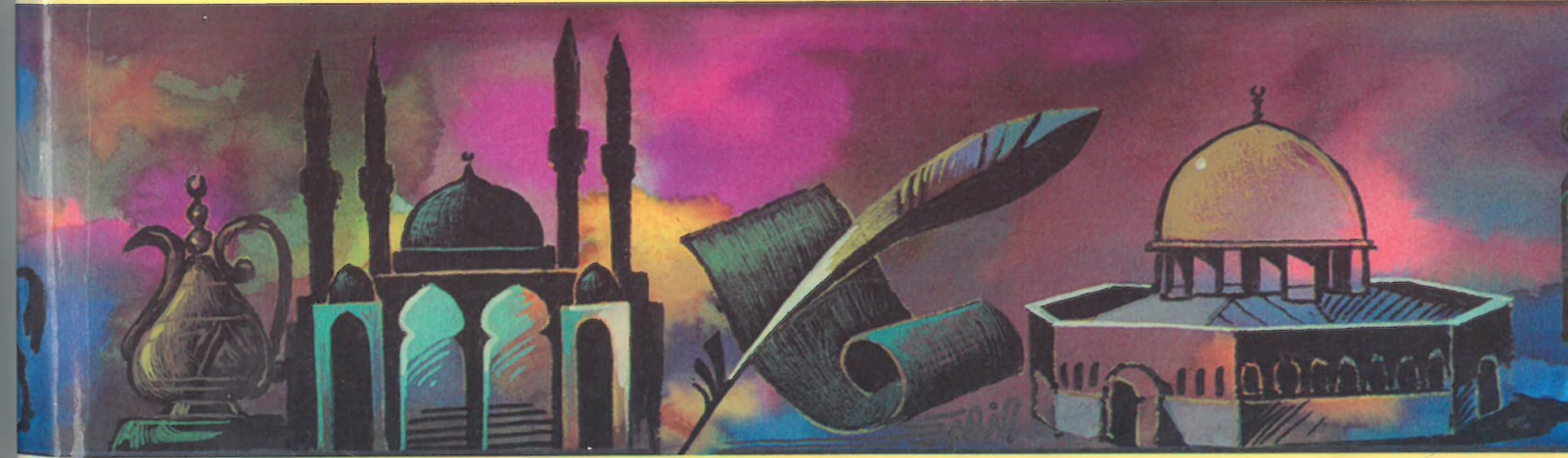
تتناول هذه الموسوعة تاريخ الإسلام والمسلمين بدءاً من بعثة النبي ﷺ حتى إلغاء الخلافة الإسلامية عبر رقعة كبيرة من الأرض امتدت حدودها من الصين وإندونيسيا شرقاً إلى الأندلس والمحيط الأطلنطي غرباً ، ومن أواسط آسيا شمالاً إلى المحيط الهندي وأقصى إفريقيا جنوباً .

وقد انتهجت الموسوعة منهج الحياد في عرض الوقائع والأحداث ، دون مبالغة في ذكر الأمجاد والبطولات ، أو تهوين من العيوب والأخطاء .

وإذا كان استخلاص الدروس والعظات والاعتبار بتجارب السابقين أحد أهداف دراسة التاريخ ، فإن ذلك لا يتحقق إلا بالدراسة الموضوعية للمواقف والأحداث .

والأهم الحية هي التي تدرس تاريخها ، وتتعلم من أخطائها قبل أن تباهى بأمجادها أو تفخر بأبطالها .

سفير ٥ شارع جزيرة العرب - المهندسين - القاهرة - ص . ب : ٤٢٥ الدقى
ت ٣٣٧٩٧٥٢ - ٣٣٥٣٧١١ - ٣٣٥٣٧١٢ - ٣٤٩٤١٣٩ فاكس ٣٤٨٠٢٩٩



أجزاء الموسوعة:

٥ - مصر والشام والجزيرة العربية.

٦ - المغرب الإسلامي.

٧ - المسلمون في الأندلس.

٨ - الدولة العثمانية.

٩ - المسلمون في إفريقيا جنوبى الصحراء.

١ - عصر النبوة والخلافة الراشدة.

٢ - العصر الأموى.

٣ - العصر العباسى فى العراق و المشرق.

٤ - المشرق الإسلامى بعد العباسيين.